دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الولاية و الصلاح بمدينة فاس
المصدر:	أشغال الأيام الوطنية السادسة عشرة - فاس والمجالات الحضرية بالمغرب: التاريخ والتراث والمجتمع
الناشر:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي
مؤلف:	هيئة التحرير(عارض)
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2008
مكان انعقاد المؤتمر:	المغرب
الهيئة المسؤولة:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي - المغرب
الشهر:	نوفمبر
الصفحات:	69 - 156
رقم MD:	598805
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الفكر الصوفي ، علماء الصوفية ، الولاية ، الصلاح ، فاس
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/598805

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

المحور الثاني

الولاية والصلاح بمدينة فاس

الكلمة التقديمة لورشة الولاية والصلاح

ذ. أحمد الأزمي
كلية الآداب، ظهر المهراز – فاس

خصص منظمو هذه الأيام الوطنية ورشة خاصة لدراسة الولاية والصلاح بمدينة فاس، وسأسعى من خلال هذه الورقة التقديمية المركزة إلى تسليط بعض الضوء على مفهوم هذين المصطلحين.

الولاية: لتسليط بعض الضوء على مفهوم الولاية، أو الوَلاية، دون الخوض في أي الكلمتين أصح، فهما صحيحتان معا بشكل عام [1]، لابد في تقديري من البحث عن نوع من التأصيل لها، وذلك بالحديث عن الانتقال من الزهد إلى التصوف في الإسلام الذي تم في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجريين، ليبلغ التصوف نضجه في القرن الثالث الهجري. معنى هذا أن هذا الفكر بدأ يتبلور بصفة موازية لاحتداد الصراع من أجل تحديد الإيديولوجية المناسبة للدولة العباسية.

فما الذي كانت تطرحه الفلسفة الصوفية في هذا الإطار ؟

كانت فلسفة تتمحور حول مصطلحات ومفاهيم على غاية من الخصوصية، لها معانيها المضبوطة، منها المعرفة والمجاهدة والولاية والكرامات والظاهر والباطن ثم الشريعة والحقيقة [2].

---

[1] – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، المجلد 15، ص 406 وما بعدها.

[2] – عبد الرحمان بن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، دراسة تحليلية للعلاقة بين السلطان الروحي والسلطان السياسي، قام بها الدكتور أبو يعرب المرزوقي، الدار العربية للكتاب، تونس 1991، ص 158 وما بعدها ثم ص 184 وما بعدها.

فالمعرفة هي التعرف على الله مباشرة وذلك بالاتصال به مباشرة ودون وسائط، والعارفون هم الذين توصلوا إلى مشاهدة الله بقلوبهم. وإذا ما تحققت هذه المعرفة تكون الولاية، حيث يصبح العارف ولي الله يتصل به دون واسطة. كما أن الكرامات تعني خرق القوانين الطبيعية، كما تعني قدرة الأولياء على العجائب، ففكر الولاية يقترن بفكرة الكرامات، إذا لا تكون الكرامات ممكنة إلا إذا حصلت الولاية. أما الظاهر والباطن فهي طريقة للتعامل مع نصوص الإسلام، ذلك أنه حسب الفلسفة الصوفية، هذه النصوص تحمل وجهين من المعاني:

الوجه الظاهر وهو يتوجه إلى العامة من المسلمين، والوجه الباطن وهو يتوجه إلى الخاصة منهم. والخاصة منهم هم العارفون أي المتصوفون ويكون الظاهر هو الشريعة والباطن هي الحقيقة، والصوفية يأخذون بالباطن دون الظاهر، أي أن ما يتعلقون به هي الحقيقة، التي هي في نهاية الأمر الإله، والإله مباشرة [1].

من وراء كل ذلك يمكن أن نستخلص مجموعة من المبادئ الفلسفية التي تمثل خروجا واضحا عن الفلسفة الرسمية، أولها إسقاط الوساطة في الدين، ويكمن هذا المبدأ في معنيي المعرفة والولاية. وقد عبر المتصوفة عن هذا المبدأ بدرجات متفاوتة، منها ما هو نفي لكل وساطة، مثلما فعل الحلاج [2] (ت 309 هـ/922) شهيد التصوف، عندما كان يقول: "أنا الحق " أو عندما يصرح بـ " سألت من أنت قال أنت "، عارضا هناك فكرة الحلول التي اعتبرت من أكثر الأفكار الصوفية تطرفا، بالإضافة إلى أن إسقاط الوساطة، ينفي الشريعة أيضا.

ولكن ما يهمنا هنا كمدلول إيديولوجي وسياسي لهذا المبدأ الأول هو نفي الفكرة القائلة بوساطة الحاكم التيوقراطي الذي يعتبر نفسه خليفة الله في الأرض وممثله لدى المجتمع

---

[1]- حسين مروة، النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، بيروت 1980، الجزء 2، ص. 177.

[2]- الاسم الكامل هو: الحسين بن منصور الحلاج.

الإسلامي، ويظهر جليا مبدأ نفي الوساطة أيضا في معنى الولاية الصوفية، لأنها تعني انتزاع احتكار السيادة أو الزعامة الدينية المطلقة من أيدي الخلفاء، حيث هي تضع الولي فوق الحاكم، فهي بذلك شكل من الأشكال المتعددة لتحطيم إيديولوجية الدولة.

وبما أن فكرة الكرامات اقترنت بمفهوم الولاية، فقد جعلت الأولياء يقومون مقام الأنبياء، رغم احتياط الصوفيين في التفريق بين الكرامات والمعجزات، فبالنسبة للبعض من المتصوفين الأوائل، إذا انكشفت الحقيقة وحصلت المعرفة سقطت الشريعة، وكانوا في جدالهم مع فقهاء السنة يقولون: لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن، لكم ظاهر الشريعة، وعندنا باطن الحقيقة، لكم القشور ولنا اللباب[1]، وإخلاصا لهذا المبدأ لوح الحلاج بفكرة الحج الروحي وهي الفكرة التي كلفته حياته.

وإذا كان مفهوم الولاية والولي تحددت معالمه، وفقا لبعض المصادر والدراسات، فما هو مفهوم الصلاح ؟

الصلاح: من المعروف أن مسألة الكرامة بالعلاقة مع الصلاح والولاء، كانت من المواضيع التي أثارت المناقشات الأكثر حدة في المغرب، ذاك أنه في منتصف القرن الثامن/الرابع عشر، أصبحت صورتا الولي والصالح اللتان لم تكونا تتميزان الواحدة عن الأخرى تلوحان لنا بدقة. فهذا ابن قنفذ يخصص في بداية ترجمته لأبي مدين [2]، بعض السطور لعلامات الصالح، للتمييز بينه وبين الولي. فإن كان ما يميز الولي، حسب قوله، هو قوة إدراكه الخارقة للعادة، التي تمكنه من معرفة الغيب، فعلامات الصالح لا تفوق مستوى الإنسان العادي. يقول ابن قنفذ: " وشأن الأولياء أن يمنحهم الله تعالى علوما إلهامية، يكشف بها عما في القلوب حتى تكون حواسهم من سمع وبصر وشم مخالفة لحواس غيرهم،

---

[1]- محمد المهدي المسعودي، ابن سيناء، دار سبريس للنشر، تونس 1981، ص. 46.

[2]- ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه كل من محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص. 2- 3.

ولذلك منهم من يرى الملائكة ومنهم من يرى الجن، ومنهم من يرى البلاد النائية، ومنهم من يرى ما في السماوات، ومنهم من يرى اللوح المحفوظ، ومنهم من يقرأ ما فيه ".

وأما الصالح، يضيف ابن قنفذ: " فهو من امتثل أوامر الله تعالى واجتنب نواهيه، ورزق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه، واجتهد في طاعته جل وعلا وبحث عن أمر كسبه، ووفق عندما حد له، ورجع عن كل ما يعلم حكمه، وأعلى درجة من هذا حصول الورع التام، وترك الطمع، وبغض الدنيا ومن تمسك بها، والفرار من دواعيها ومن أهلها، والقناعة باليسير منه. ودرجات الصالحين تختلف بالترقي في ذلك على حسب العناية من الله تعالى في المماليك " [1].

فإذا كان الولاء إذن هبة من الله، فالصلاح يقتضي قبل كل شيء، سعي ومجهود المخلوق، والأولياء أنفسهم رجال صالحون قبل كل شيء، ولا يأتيهم الولاء، سواء أكان جليا أو خفيا إلا فضلا. وغالبا ما يكون الصلحاء أولياء خفيين.

وهكذا نلاحظ أن القرن الثامن (14) يولي اهتماما خاصا إلى الصلاح لكونه مجرد فضيلة إنسانية، وهذه الفضيلة تتمثل في تصرف شامل تجاه الحياة يمكن اختزاله وتلخيصه في كلمة واحدة: الورع [2].

لكن ماذا عن أولياء وصلحاء فاس، موضوع هذه الورشة ؟

لا يجادل أحد في أهمية ما تمثله مدينة فاس من رمزية فكرية وثقافية وإشعاع علمي وروحي بشكل خاص، على المستويين الوطني والعالمي، مما أهلها لتكون عاصمة علمية للبلاد ومنارة فكرية للعباد إلى يومنا هذا، يشهد على هذا القول ما أورده المشنزائي صاحب كتاب " سلسلة الذهب المنقود، الذي ذكر أن فاس " حاوية لما لا يحصى من العلماء والصلحاء

---

[1]- نفسه.

[2]- عبد السلام الشدادي، حركة الصلاح في عهد ابن خلدون: ابن عاشر نموذجا، ضمن أعمال ندوة " فكر ابن خلدون " مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 2008، ص. 205 وما بعدها.

الذين هم على مذهب مالك، وهي مدفن الإمام إدريس. وقد قيل في حاضرتها يكاد العلم ينبع من حيطانها، وما ذلك إلا لكثرة من حل واديها من صلحاء الأنام، ونشأ بها من الأئمة الأعلام الذين يستضاء بأنوارهم ويتنعم في رياض أزهار علومهم، وذلك كله رشفة من بركة دعوة بانيها التي عمر الله بها ناديها، وتشعشعت أنواره وتفضل به المولى على أهل المغرب الأقصى"[1]. كما تحدث محمد بن جعفر الكتاني في سلوته عن أهمية نفس المدينة " لكثرة عبادها وزهادها وفقهائها وعلمائها ومتصوفتها باعتبار ما مر في هذه البلدة العظيمة المقدار من العلماء والأولياء، ما لا ينحصر كثرة ولا تستوعبه الأسفار..." [2].

إنصافا إذا لرجالات هذه المدينة الصالحين، اختارت هذه الورشة (المائدة المستديرة)، قضية الولاية والصلاح بمدينة فاس موضوعا لأبحاثها العلمية، وهو موضوع يكتسي أهميته القصوى ليس باعتباره، مكونا أساسيا للمنظومة العلمية والفكرية التي ميزت المدينة، على امتداد حقبها التاريخية فقط، ولكن باعتبار التصوف أحد هذه المقومات الدينية والروحية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمع المغربي والمجتمع الفاسي خاصة.

وقد احتفظت كتب التراجم والمناقب بأسماء عدد كبير من الأولياء والصلحاء، ودونت مختلف الوقائع والأحداث التي عايشوها مع المجتمعات التي عاصرتهم واحتضنتم. وأيا كان نوع هذه الأحداث فإنها كانت تستدعي تدخلهم عن طريق مراقبة السلطة وتوجيهها أو تعويضها أحيانا في حالة عجزها، وحل بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، بتسوية الخلافات بين الأشخاص والجماعات وبين القبائل، وبينهم وبين المخزن، وباستنزال المطر

---

[1]- محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2004، جزء 1، ص.5.

[2]- نفسه، ص. 3.

ومعالجة الأمراض وترويض بعض الحيوانات[1]. وهي كلها أمور تهدف إلى تذليل الصعاب والوصول إلى بعض الغايات والأهداف المتعذرة على المستضعفين والمغلوبين على أمورهم.

وفي الختام أقول إن موضوع الولاية والصلاح، يتطلب عشرات العروض والأبحاث التي تمثل مختلف التخصصات والحقول العلمية، لتسليط مزيد من الضوء على بعض قضاياه، لكن ما لا يؤخذ كله يؤخذ بعضه، وأملنا كبير في أن تساهم هذه الورشة في تسليط مزيد من الضوء على عدد من رموز الولاية والصلاح بمدينة فاس، يمثلون أعلاما شامخة تنتمي بشكل عام للتصوف الشاذلي، أوتجسد الإمامة والولاية كما هو الشأن بالنسبة للمولى إدريس مؤسس مدينة فاس.

[1]- أبو العباس العزفي، دعامة اليقين، في زعامة المتقين (مناقب الشيخ أبي يعزى)، تحقيق أحمد توفيق، مكتبة خدمة الكتاب، الرابط 1989- 1970، مقدمة التحقيق، ص: " ز ".

تقرير عن ورشة الولاية والصلاح بفاس

ذ. محمد المبكر
كلية الآداب، ظهر المهراز – فاس

انطلقت أعمال ورشة "الولاية والصلاح" بفاس بكلمة تقديمية حدد فيها منسق الورشة ذ. أحمد الأزمي مجموعة من المفاهيم والمصطلحات الصوفية منها على الخصوص مفهومي الولاية والصلاح انطلاقا من تعريف ابن قنفد لهما. ثم تلا هذا التقديم ستة عروض لأساتذة باحثين متخصصين كل في مجاله، ومن ثم تنوع المواضيع المطروقة وشدة تخصصها، من موضوع إمامة المولى إدريس وولايته (ذ. جعفر السلمي) إلى مشكلة استعمال صاحب "سلوة الأنفاس" لكتاب"المستفاد" (ذ. محمد الشريف)، ثم إلى ما سماه ذ. عبد الله نجمي "العبادية" (نسبة إلى ابن عباد الرندي)، فموضوع القوة الرمزية للزاوية الفاسية كما حللتها ذة. نفيسة الذهبي، فقضية العلاقات بين الصلحاء والسلاطين العلويين كما يراها ذ. أحمد البوزيدي، وصولا إلى بيوغرافية سيدي قاسم بن رحمون التي دققها ذ. أحمد العمراني وأفاض فيها.

ولعل تنوع هذه المواضيع وتخصصها هو ما أضفى على هذه الورشة شعورا بتشعب موضوع الولاية والصلاح بفاس، وبغناه ومركزيته في مجال البحث التصوفي على مستوى البلاد المغربية قاطبة، وأيضا بحاجته إلى مزيد البحث والتمحيص. وإذا كانت بعض العروض قد ألقت المزيد من الضوء على بيوغرافية بعض الصلحاء (سيدي قاسم بن رحمون)، فإن معظم المداخلات كانت في الحقيقة عبارة عن مشاريع بحث أكثر مما كانت "تقريرية" أو نتائج نهائية لبحوث سابقة. وهذا ما يجعلنا نستشف أن البحث التاريخي في مجال التصوف، على الرغم من قدم الاهتمام به، ربما كان بحاجة إلى التجديد على مستوى المقاربات والمناهج المعتمدة.

من هذه الزاوية فقط، أود أن أتناول صلب هذا التقرير، على اعتبار أن الأسئلة الجديدة أو المتجددة والمواضيع "الشائكة" قد تشكل مشاريع بحث قمينة بأن تلقي أضواء جديدة على ظاهرة الولاية والصلاح بشكل عام .

1- مشكلة المصادر

مازالت بعض المصادر المناقبية (والمغربية عموما) تطرح مشاكل على مستوى التحقيق على مستوى صحة نسبها إلى مؤلفيها (فإذا كان بعضها قد حسم فيه بعد دراسات مستفيضة، كما كان الحال بالنسبة إلى كتاب "المستفاد" الذي ثبتت نسبته للتميمي بعد دراسة ذ. محمد الشريف[1]، فإن البعض الآخر ما زال ينتظر)، وعلى مستوى ضبط النقول الواردة فيها عن طريق الاستعمال المباشر أو غير المباشر. وهو ما أثاره ذ. محمد الشريف بصدد استعمال محمد بن جعفر الكتاني في سلوته[2] لكتاب المستفاد. ومن ثم يتساءل: "ألا ينبغي الآن أن نقوم بدراسة مصادر المصادر المناقبية لتدقيق النقول ؟"

2- مشكلة التأريخ للشاذلية، أصولها وفروعها

وهنا يندرج مشروع عمل يرجع مجددا إلى ابن عباد الرندي (ودراسات الراهب اليسوعي Paul Nwyia لحياته ومؤلفاته[3])، ليفضي إلى ما يسميه ذ. عبد الله نجمي "العبادية" بصفتها طريقة شاذلية أصيلة ينبغي تحديد علاقاتها بطرق أخرى وخاصة الزروقية.

---

[1] - محمد الشريف، ***المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (توفي سنة 603 أو 604 هـ)***، جزءان، منشورات كلية الآداب بتطوان، سلسلة الأطاريح الجامعية (4)، 2002.

[2] - أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني (1274-1345)، ***سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس***، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، 3 أجزاء، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1425هـ - 2004م.

[3] -*Nwyia (P.)*, **Ibn 'Abbad de Ronda (1332-1390). Un mystique prédicateur à la Qarawyine de Fès**, *Institut de Lettres Orientales, t. XVII, Beyrouth, Imp. Catholique, 1961 ; « Ibn 'Abbad de Ronda et Jean de la Croix »*, **Al-Andalus : Revista de las Escuelas de Estudios Árabes de Madrid y Granada**, *Vol. 22, N° 1, 1957, pp. 113-130 ; Les Lettres de direction spirituelle de Ibn 'Abbad de Ronda, texte inédit des Rasail as-sugra, Beyrouth, Imp. catholique, 1957 ;* **Lettres de direction spirituelle / Ibn 'Abbād de Ronda (792H) ; nouvelle édition augmentée de sept lettres extraites des "Rasāil al-kubrä" et deux nouveaux appendices par Paul Nwyia**,

ابن عباد أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، الرسائل الصغرى، *ط.2، بيروت، دار المشرق، 1974*.

3- **إشكالية إمامة المولى إدريس وولايته**، كما يطرحها ذ. جعفر السلمي الذي يركز بقوة على ضرورة إعادة النظر في تاريخ الأدارسة محذرا من "مصادرة التاريخ الإدريسي" على يد الفكر الشيعي المعاصر ولصالحه.

ومن هنا تثار مجددا مشكلة المذهب الذي كان عليه المولى إدريس: هل كان زيديا معتزليا كما هو مسلم به عادة[1]، أو كان شيعيا إثنا عشريا كما يدعيه بعض الشيعة المعاصرين، أو كان سنيا "محضا" كما يراه ذ. جعفر السلمي، على اعتبار أن إمامة المولى إدريس إمامة بالمعنى السياسي، لا بالمعنى الشيعي الديني. وعلى كل حال، فإن هذه الفرضية، التي قد تثير التحفظات بل المعارضات، جديرة بالمتابعة، ومن شأنها أن تعيد النظر في هذا الجانب من التاريخ الإدريسي الذي ما زال يكتنفه الغموض بسبب فقر المصادر المعاصرة للأحداث.

4- **تأويل ظاهرة الولاية والصلاح**، ونقصد هنا ربط هذه الظاهرة بالتاريخ العام لتحديد الوظيفة الحقيقية للولي الصالح في المجتمع الفاسي خاصة والمغربي عامة. هل نكتفي بمقولة "رأس المال الرمزي الذي تركز عليه ذة. نفيسة الذهبي والذي يتجلى بالنسبة إلى الزاوية الفاسية في "العلم وجمع كلمة الشعب والوساطة" ؟ ما علاقة هذه "الرمزية" بتطور المجتمع وتغير أحواله ؟ وبتعبير آخر : ما الذي يبرر ظهور الولي الصالح وتنامي دوره وتقهقره بحسب الحقب التاريخية؟

هنا ربما كنا بحاجة إلى مقارنة بين ظاهرة الولي الصالح في البلاد الإسلامية وظاهرة "الرجل القديس" (holy man/saint homme) كما درسها بيتر براونPeter Brown في المجتمعات المسيحية (خاصة في مصر وسوريا) خلال المرحلة الأخيرة من العصر القديم (Late antiquity/Antiquité tardive)[2]. هناك أيضا، كان "الرجل القديس" يلعب دور الوساطة والتحكيم وتحقيق التوازن، وهو دور ورثه عن "الرجل الحامي" للمدينة (أو القرية). إذ لا

---

[1] - محمود إسماعيل، ***الأدارسة في المغرب الأقصى (172-375 هـ)، حقائق جديدة***، الكويت، مكتبة الفلاح، 1409 هـ - 1989 م، ص 21 وما بعدها.

[2]- Brown (P.), ***Society and the Holy in Late Antiquity***, Los Angeles-Oxford, University of California Press, 1982 (trad. Fr. par Aline Rousselle, ***La société et le sacré dans l'Antiquité tardive***, Ed. du Seuil, 1985.)

مناص من التساؤل مع بيتر براون : لماذا ظهر هذا النوع من الرجال في تلك الفترة بالتحديد، وماذا كان المجتمع ينتظر منهم بالضبط آنئذ ؟ ولماذا كان دورهم يخفت في بعض الفترات على المستوى السياسي على الأقل ؟ (ذ. أحمد البوزيدي يشير إلى فترة تراجع فيها دور الأولياء والصلحاء بعد وفاة المولى إسماعيل).

وفي موضوع تأويل الظاهرة أيضا، قد يكون من المفيد العودة للتساؤل مع الهسطوريوغرافيا الكولونيالية عن السر في كثرة عدد الأولياء وتبجيل أضرحتهم في شمال أفريقيا المسيحية[1]، ثم بعدئذ في بلاد المغرب على العهد الإسلامي. فإذا كان تبجيل القديسين والشهداء ورفاتهم في شمال أفريقيا المسيحية ظاهرة ملفتة للانتباه، فإن نفس أرض المغرب – كما يقول ابن قنفد – "تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ". هل يتعلق الأمر بذهنية "خاصة" وحساسية دينية تميز سكان المغرب؟ هذا طبعا بدون السقوط في التفسير "العنصري" لبعض الكتابات الكولونيالية، بل فقط بمراعاة أن التشابه في الظروف التاريخية ربما نجم عنه تشابه في الظاهرة. وعلى كل حال، هذه فرضية قد تساعد على تأويل ظاهرة الصلاح في الفترتين معا.

5- **على مستوى المنهج**، قد يكون من المفيد تحديد الأدوات المنهجية في معالجة النصوص المناقبية، على مستويين :

أ– استنباط صورة المجتمع والإنسان العادي من صورة الولي الصالح، على اعتبار – كما يقول بيتر براون – أنه " في كل المجتمعات، تساعد الدراسة المتوازية للوجوه الأكثر إثارة للإعجاب والأكثر بعثا عل الاشمئزاز على إلقاء الضوء على طبيعة الانتظارات والآمال الفردية للإنسان العادي. لذلك، فإن "الرجل القديس" (holy man) هو نتاج المجتع المحيط به في منظور المؤرخ. فبدل تصويره بأدق التفاصيل كما لو كان هذا التصوير كافيا لتفسير

[1] – نقصد هنا مؤلفات Edmond Douté و Georges drague و Emile Derenghem و René Basset، الخ.

افتتان عامة الناس به في تلك المرحلة (المتأخرة من العصر القديم)، يجدر بالمؤرخ أن يستعمل هذا التصوير كمرآة لالتقاط صورة من زاوية غير متوقعة لما كان عليه ذلك الرجل العادي نفسه."[1]. ومن هنا لابد من تجديد الدعوة إلى قراءة الأدب الصوفي والمنقبي في أفق التاريخ الاجتماعي الشامل[2]، لا من زاوية التأريخ للتصوف فقط.

ب– ثانيا، وعلى المستوى المنهجي أيضا، قد نكون بحاجة إلى دراسات "بروسبوغرافية" (prosopographies)[3] تفضي إلى وضع موسوعة شاملة لأولياء وصلحاء المغرب تيسر الأبحاث القطاعية وتدققها مكانيا وزمنيا: صلحاء الجبل، صلحاء البحر، صلحاء الصحراء، الخ.، أو صلحاء العصر المريني، أو السعدي، أو العلوي، الخ. ومن شأن تلك الدراسات البروسبوغرافية أن تساعد على وضع إحصائيات تتناول حياة الأولياء أنفسهم : سنهم، وضعهم العائلي، مهنهم، كراماتهم، أضرحتهم، شيوخهم وتلامذتهم إلى غير ذلك من الخانات التي يمكن وضعها في الجذاذة المخصصة لجمع المعلومات الواردة عنهم في المصادر أو المستخلصة من بحوث ميدانية. ومن شأن هذا العمل أيضا أن يساعد على رسم "خرائط الولاية والصلاح" في الأزمنة المتعاقبة.

---

[1] -Brown (P.), ***Society and the Holy...***, *op.cit.*, pp. 106-107.

[2] – أنظر أعمال الملتقى الدراسي "***التاريخ وأدب المناقب***"، الرباط، 8 – 9 أبريل 1988، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات عكاظ، 1989.

[3] – لإلقاء نظرة سريعة على المقاربة البروسبوغرافية، يراجع :

Burguière (A.), ***Dictionnaire des sciences historiques***, Paris, *PUF*, 1986, *s.v.* (par J. Andreau), pp. 546-548.

محمد المبكر، "البروسبوغرافيا في الدراسات التاريخية"، أعمال ندوة الجمعية المغربية للبحث التاريخي في موضوع : "بعض القضايا المنهجية لعلوم التاريخ"، كلية آداب الرباط، 24-25 أكتوبر 1997، نشر مجلة "أمل"، العدد 15، السنة الخامسة، صص. 7-17.

وبهذا الامتياز الاجتماعي، يستطيع هؤلاء المستحرمون التجول بحرية وأمان داخل الأزقة التابعة للحرم. وتختلف مصادر معيشتهم داخل الحرم من فئة لأخرى، فبعض المستحرمين يعيش على ما تحمل إليه أسرته أو أصحابه من طعام ومئونة، وبعضهم ممن لا أهل له يعيش على صدقات الناس، بينما يعكف البعض الآخر على ممارسة بعض الحرف الصغيرة لكسب قوت يومه، مثل حياكة الملابس، وفتل الحبال من العسف، والحلاقة، وغير ذلك من الأعمال البسيطة.

ولا يمكث اللاجئون بالحرم الإدريسي في غالب الأحيان سوى فترة محدودة، ينتظرون أثناءها التوصل إلى تسوية لقضاياهم مع السلطات المخزنية ومع ذوي الحقوق، أويتحينون خلالها الفرصة السانحة للهروب إلى مكان آخر. ولتيسير الأمور، يلجأ ولاة ضريح مولاي إدريس إلى توسيع مجال الاستحرام بواسطة حمل الألواح القرآنية للحرم، التي تُعار للاجئين، ليحتموا بها عندما يضطرون للمثول أمام الدوائر المخزنية[1].

تحتفظ المصادر التاريخية بإفادات قيِّمة عن نهوض الضريح الإدريسي بمهمة إيواء الهاربين وحمايتهم. وهي إفادات متصلة بعصر العلويين، وخصوصاً الفترة الحديثة منه، توزع فيها اللاجئون بين أمير مخلوع، ومقدَّم جائر، وجماعات مقهورة.

فخلال حروب السلطان مولاي إسماعيل مع الثائر أحمد بن عبد الله الدلائي في سنة 1088هـ/1677م، استحرم من كان بفاس من أهل الزاوية الدلائية بحرم مولاي إدريس، وشدد أهل فاس عليهم الحصار وضيقوا بهم وبأهلهم[2]، من دون أن يأذن لهم السلطان في ذلك، إلى

---

[1]- Lapanne-Joinville et A.Acquaviva, «Le Horm de Moulay Idriss», op.cit, p.172. Emile Dermenghem, Le Culte des Saints dans l'Islam Maghrébin, Gallimard, Paris, 2eme Edition, 1954, p.169.

[2] – محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج2، ص.229؛ التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1983، ص.204، 220؛ أحمد بن محمد ابن الحاج السلمي المرداسي الفاسي، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 12184، ج6، ص.87.

أن بلغهم خبر موت الثائر المذكور في سنة 1091هـ/1680م، فلما رجع السلطان إلى فاس «خرجوا إليه مستشفعين، فرقَّ لهم ومَنَّ عليهم، ولم يعاتبهم على ما فعل أخوهم»[1].

وعندما تعاظم جور الخياط الزرهوني على الناس بمسجد القرويين، وكان مقدَّماً على جهة اللمطيين، أمر السلطان مولاي إسماعيل قائده أبا علي الروسي بالقبض عليه، فهرب الخياط الزرهوني إلى الحرم الإدريسي واستحرم به مدة، فأجلس الروسي مَن يرتقبه هنالك حتى يخرج عن محيط الحرم، فلما خرج عنه أُلقي عليه القبض، وسار به الروسي وبأمثاله من الأعوان المستبدين إلى السلطان بمكناس، فضُربت أعناقهم بين يديه[2].

وبعد انهزام السلطان عبد الملك بن إسماعيل العلوي أمام قوات العبيد في أثناء نزاعه مع أخيه مولاي أحمد الذهبي على الحكم في سنة 1141هـ/1729م، قصد حرم مولاي إدريس واحترم به خوفاً من أن يفتكوا به، فبايع أهل فاس السلطان مولاي أحمد الذهبي وصالحوه على دفع أخيه عبد الملك وتمكينه منه، فكتب مولاي أحمد لأخيه مولاي عبد الملك يخيره بين التوجه لتافيلالت أو المقام في الحرم، فاختار المقام في الحرم وقال: إني في حرم الله ولا حاجة لي بالملك. فشهد عليه بذلك، وأُرسلت الشهادة لأخيه الذهبي. ثم إن مولاي عبد الملك سمع ممن «لا خلاق له» من أهل فاس يقول في حقه إن هذا الحرم لا يُجير عاصياً. وسمع أن بعض الطلبة الذين أفتوا بخلعه أفتوا كذلك بإخراجه من الحرم الإدريسي، فبعث حينئذ أحد أولاده لعبيد مشرع الرملة يطلب منهم الأمان لنفسه ويخرج معهم، فقدم الباشا سالم الدكالي رئيس العبيد ومعه نحو الخمسين من قوادهم، ودخلوا لحرم مولاي إدريس وأعطوه من العهود والمواثيق الغليظة منهم ومن أخيه ما لا مزيد عليه، فخرج معهم بالأمان، وسلموه لأخيه مولاي أحمد، فلما وقف بين يديه أمر بسجنه، ووجهه إلى مكناس فسُجن بدار الباشا

---

[1] – محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج2، ص.289.

[2] – محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج4، ص.229؛ أحمد ابن الحاج السلمي، الدر المنتخب المستحسن...، م.س، ج8، ص.95؛ عبد الرحمن ابن زيدان العلوي، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، مطابع إديال، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1990، ج3، ص.15.

الحَرَم الإدريسي بفاس مؤسسة دينية واجتماعية

ذ. محمد العمراني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس- فاس

يُعَدُّ الحرم الإدريسي بفاس من أكثر الحُرم شهرة في المغرب، أحاطه الناس بقداسة خاصة منذ العثور على قبر مولاي إدريس الأزهر بـ«أساس حائط القبلة من الجانب الأيسر» من مسجد الشرفاء في رجب سنة 841هـ/1437م على عهد بني مرين. ذلك أن «موضع قبره الشريف لم يكن معروفاً على سبيل القطع والتعيين[1]، لكون المروانيين وأعوانهم من الزناتيين بزعامة موسى بن أبي العافية المكناسي حينما شرَّدوا الأدارسة وأجْلَوْهم عن فاس، وشدَّدوا على شيعتهم وأتباعهم بالأذى والإهانة حتى لم يبق منهم أحد بقرب فاس، أهملوا قبر مولاي إدريس، ولم يُجيروا مَن استجار به، بل كانوا إذا ظفروا بمن لجأ إليه بالغوا في إذايته، واستمروا على ذلك إلى أن خفي القبر، ولم يبق مَن يعرف مكانه بالمسجد المذكور حتى وقع العثور عليه في التاريخ المتقدم[2].

وتذكر المصادر أنه لما عُثر على قبر مولاي إدريس «وُجد اللحد قد أبلت الليالي رسمه فلم يبق منه إلا قليل، والجسد المرحوم باق على حاله لم يتغير، ولم يكن للأرض عليه من سبيل!»[3]. وكان بين وفاته وظهور جسده ستمائة وثمانية وعشرون عاماً، لكونه توفي في سنة 213هـ/828م، «فكان ذلك من أعظم كراماته، وأسنى باهر آياته»[4]. بل يُروى أن السلطان

---

[1] – محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2004، ج1، ص.83.

[2] – محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، الطبعة الأولى 1986، ج3، ص.243؛ محمد بن محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعَدِّ بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2005، ج1، ص.318.

[3] – محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج3، ص.243.

[4] – محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس...، م.س، ج1، ص.83.

مولاي إسماعيل لما جدَّد بناء الضريح الإدريسي في سنة 1131هـ/1719م، أراد أن يتأكد بصفة شخصية من صحة ما ذُكر عن جسد مولاي إدريس، فأمر بإخراج الجسد من القبر، فوجده باق على حالته المذكورة، حتى أنه ضغط بسبابته على وجنة الولي فانحصر الدم عما تحتها، وتغير لون وجهه في الحال من أثر ذلك الضغط[1] !

وباكتشاف قبر مولاي إدريس، أمر بنومرين في السنة نفسها بتأسيس زاوية الشرفاء الأدارسة بفاس لأول مرة[2]، وبادروا إلى إحياء سياسة كبار أسلافهم إزاء هؤلاء الأشراف، فصاروا «يعظمونهم، ويوجبون حقهم، ويتقربون إلى الله تعالى برفع منزلتهم، وجبر خواطرهم، لما فاتهم من رتبة الخلافة التي كانت تكون لهم بطريق الاستحقاق الشرعي»[3] .

وواصل المرينيون مبرتهم لحفدة مولاي إدريس إلى أن باتت فاس قبلة للأشراف المتوافدين عليها من مختلف المناطق المغربية، وأمسى الحرم الإدريسي بفضل عنايتهم وعناية مَن جاء بعدهم من سلاطين المغرب مقصداً للزائرين، وموئلاً للاجئين، يهرع إليه المرعوبون من كل أنحاء المغرب -على اختلاف فئاتهم الاجتماعية- للاستحرام به، واللياذ بؤلاته، فيصبحون في مأمن من المتابعة بمجرد ولوجه، «مهما كانت جنايتهم، سواء أكانوا قتلة، أم لصوصاً، أم فارين من سلك الجندية، أم قواداً معزولين»[4]، وذلك لاعتقادهم الراسخ بكونهم في «حِجر سلطان فاس وإمامها وبانيها، فلا يخافون ظلماً ولا هضماً!»[5].

---

[1] - Lapanne-Joinville et A.Acquaviva, «Le Horm de Moulay Idriss (Fes)», in *Revue Africaine*, Publié Par la Société Historique Algériènne, Alger, 1er et 2 eme trimestres, Tome XCI, 1947, pp.171-172.

[2] - محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1987، ص.116، 122.

[3] - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1955، ج4، ص.115.

[4] - Lapanne-Joinville et A.Acquaviva, «Le Horm de Moulay Idriss», op.cit, p.171.

[5] - محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، دراسة وتحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 2008، ص.124.

امساهل أحد رؤساء العبيد مدة، إلى أن أمر أخوه مولاي أحمد بقتله، فقُتل مخنوقاً ليلة الثلاثاء 30 رجب عام 1141هـ/2 مارس 1729م[1].

وضمن حرم مولاي إدريس الحماية للشريف مولاي الحسن الفضيلي العلوي، بعدما لجأ إليه واستحرم به عام 1149هـ/1736م، للنجاة من نقمة السلطان الجديد محمد بن إسماعيل المعروف بابن عربية[2].

ومما لا شك فيه، أن الحرم الإدريسي قد تأثر سلباً بالأوضاع المختلة التي أفرزتها مرحلة ما بعد السلطان مولاي إسماعيل(1727-1757م)، وهي المرحلة التي اعتادت المصادر التاريخية المغربية على نعتها بـ«الفترة»[3]، وكأن الأمر يتعلق بتلك «المدة الفاصلة بين نَبِيَّيْن، حيث تنقطع الرسالة السماوية، ويُترَكُ البشر دون هُدى سوى من أنفسهم»[4]، وذلك للتدليل على هول الكارثة التي حلت بالبلاد والعباد بعد وفاة السلطان المذكور.

فقد تحول الحرم الإدريسي خلال هذه «الفترة» إلى ساحة للجدال الحاد بين الشرفاء الأدارسة أنفسهم، مما أثر على هيبته في نفوس المستحرمين به من جهة، وعلى منزلته الروحية

---

[1] - عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن إسماعيل، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص.223-224؛ محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج3، ص.320؛ التقاط الدرر...، ص.350؛ أبو القاسم الزياني، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، الطبعة الأولى 1992، ص.232؛ محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، الطبعة الأولى 1986، ص ص.108-109؛ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س، ج7، ص.121؛ عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س، ج1، ص.292-293؛ ج5، ص ص.307-309.

[2] - محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج3، ص.396، 404.

[3] - انظر على سبيل المثال: أبو القاسم الزياني، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، تقديم وتحقيق عبيد محمد غسان، طبعة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992، ص.792؛ محمد بن علي الزبادي المنالي الفاسي، سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية، تقديم وتحقيق عبد الحي اليملاحي، منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة تراث رقم 12، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى 2012، ص.178، 331، 416؛ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س، ج8، ص.3، 12؛ محمد بن محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية..، م.س، ج2، ص.28، 51؛ عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س، ج3، ص.158.

[4] - عبد الرحمن المودن، «الحوليات والأزمات السلطانية(1727-1757م) مصطلح الفترة»، في ندوة الإسطوغرافيا والأزمة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى 1994، ص.108.

لدى المخزن من جهة أخرى. ويبدو أن الثروة التي كان هؤلاء الشرفاء يجنونها من الاستغلال المباشر لمختلف مرافق هذا الحرم هي التي كانت موضوع هذا الجدال، الذي كاد في بعض الأحيان أن يؤدي إلى صراع مكشوف بين فِرق هؤلاء الأشراف، الأمر الذي استدعى تدخل السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل لوضع حد لهذا النزاع، سعياً منه في إصلاح ذات بين الشرفاء المذكورين، وذلك بأن جعل المداخيل المالية للضريح الإدريسي، والمنافع الأخرى التي تتأتى من الدفن بالمقابر الموجودة بداخله، مناصفة بين الجميع، بمقتضى ظهير شريف مؤرخ في 4 شعبان عام 1141هـ/1729م[1].

وعلاوة على ذلك، انتقل الصراع بالحرم الإدريسي من صراع داخلي بين الشرفاء الأدارسة وُلاة الحرم، إلى صراع خارجي بين هؤلاء الأشراف وبين اللمطيين بفاس. إذ يُستفاد من قراءتنا لـ«نشر المثاني» أن نزاعاً نشب في عام 1168هـ/1754م بين الشريف سيدي محمد الغالي الإدريسي الجوطي، أحد ولاة الحرم الإدريسي، وبين ابن الأكحل المدعو حميميد، أدى إلى مقتل هذا الأخير، وهو ما أجج جذوة الصراع بين اللمطيين أنصار القتيل وبين شرفاء فاس المنافحين عن القاتل الغالي الإدريسي المذكور. وقد زاد من اشتعال فتيل الفتنة التدخل السلبي لعامل فاس عبد الخالق عديل في هذه النازلة، وذلك بتحريضه اللمطيين على أخذ الثأر لأخيهم الهالك، لعداوة سابقة كانت بينه وبين الشريف الغالي الإدريسي[2].

وقد بلغت هذه الفتنة نقطة الذروة في السنة التالية 1169هـ/1755م، حينما اشتد الصراع بين الشرفاء الأدارسة -وُلاة الحرم- والعامل عبد الخالق عديل، فآل الحال بسببه إلى

---

[1] - انظر ظهير السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل العلوي للشرفاء الطاهريين الجوطيين وأبناء عمومتهم الشرفاء الأدارسة بفاس، مديرية الوثائق الملكية، الرباط، محفظة تحمل تاريخ 1139-1147هـ. للمزيد من التوسع عن هذا الموضوع انظر: حمدون الطاهري الجوطي الفاسي، تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان، دراسة وتحقيق محمد العمراني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس، مطبعة سايس گرافيك، الطبعة الأولى 2011، ص.19؛ محمد العمراني، «لمحة تاريخية عن الأسرة الطاهرية الجوطية بفاس من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر الهجري/ق.15-18م». في مجلة المصباحية (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس)، العدد 7، سنة 2007، ص.108.

[2] - محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج4، ص.101.

قتل الشرفاء المذكورين بعض أنصاره داخل الحرم الإدريسي، فتدخل السلطان مولاي عبد الله حينئذ لإنهاء الأزمة بين الطرفين، فعمد إلى عزل هؤلاء الشرفاء عن ولاية الحرم وإخراجهم من دار القيطون، وإسناد الولاية إلى الشرفاء العمرانيين والطاهريين والطالبيين[1].

وعقب هذا الإجراء السلطاني، فتح الحرم الإدريسي بابه في وجه السلطان المعزول مولاي المستضيئ بالله بن إسماعيل العلوي، حينما قصده في السنة ذاتها واستحرم به، إلى أن خرج منه مختفيا. ولعل في خروجه بهذه الطريقة أمارة على عدم شعوره بالأمان على نفسه وماله داخل الحرم الإدريسي، ومصداق ذلك توجهه فَوْراً بثروته إلى دار الشريف مولاي علي بن مولاي التهامي الوزاني بفاس، حيث أنزل بها أهله وأولاده، قبل أن يولي وجهه شطر تافيلالت ليقضي بها بقية عمره[2].

ولم يكن في صالح الشرفاء الأدارسة عموماً أن يتركوا قضيتهم مع أنصار العامل عديل على حالها، ويرتكنوا إلى الحل المؤقت الذي فرضه السلطان مولاي عبد الله، لذلك اقتضى الحال أن يتدخل أهل فاس بمساعيهم ووساطاتهم الحميدة لإصلاح ذات بين الجميع، فاجتمعت كلمتهم على رد الحرم الإدريسي للشرفاء الأدارسة أهل دار القيطون الذين كانوا به أول الأمر، وذلك في 23 رمضان عام 1170هـ/1756م[3].

وبهذا التوافق السلمي، استعاد حرم مولاي إدريس دوره الحيوي في استقبال اللاجئين، وحماية المغلوبين من ملاحقة الغالبين المتغلبين، وتزامن ذلك مع أفول مرحلة «الفترة»، وبزوغ مرحلة تاريخية جديدة مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي «جدَّد الدولة الإسماعيلية

---

[1] – حمدون الطاهري الجوطي، تحفة الإخوان...، م.س، ص.272؛ محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج1، ص.196؛ الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.158؛ أحمد ابن الحاج السلمي، الدر المنتخب المستحسن...، م.س، ج9، ص.265.

[2] – الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.158، 160؛ أحمد ابن الحاج السلمي، الدر المنتخب المستحسن...، م.س، ج9، ص.117، 118

[3] – أحمد ابن الحاج السلمي، الدر المنتخب المستحسن...، م.س، ج9، ص.271.

بعد تلاشيها، وأحياها بعد خمود جمرتها وتمزيق حواشيها، بِحُسن سيرته ويُمْن نقيبته»[1]، وأعاد للأشراف اعتبارهم، وأجرى عليهم الجرايات الجزيلة، تقديراً لنسبتهم الشريفة[2].

واعتباراً لذلك، لم يتردد الأوداية في المسارعة إلى الاعتصام بالضريح الإدريسي طلباً للحماية والأمان، في خضم الحملة التأديبية التي وجهها ضدهم السلطان المذكور في سنة 1173هـ/1759م[3]. كما لم يتوان أفراد آخرون في الاحتماء بحمى هذا الولي الصالح، سواء إبان هذا العهد أم خلال العهود اللاحقة، كما هو الحال بالنسبة للشريف مولاي الحسين بن محمد بن الفضيل الإدريسي[4]، والأمير مولاي إبراهيم بن اليزيد[5]، ومحتسب فاس الفقيه الفندوشي[6]، والحاج محمد برگاش الرباطي[7]، الذين احترموا به إبان عهد السلطان مولاي سليمان. والأمين الحاج محمد بن المدني بنيس، الذي هرب إليه بعد ثورة الدباغين بفاس ضد المكوس على الأبواب، والتي تزامنت مع بيعة السلطان مولاي الحسن، «فأقام به وأمن على نفسه»[8]. والشريف العلمي الأوديي الذي «زاوگ» به خلال عهد السلطان مولاي عبد العزيز[9].

---

[1]- أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س، ج7، ص.193.

[2]- أبو القاسم الزياني، الترجمان المعرب...، م.س، ص.816؛ عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س، ج3، ص ص.233-235.

[3] - محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج4، ص.139.

[4] - الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.265.

[5] - المصدر نفسه، ص.278.

[6] - المصدر نفسه، ص.294.

[7] - المصدر نفسه، ص.328.

[8] - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س، ج9، ص.129، 131؛ محمد بن محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية...، م.س، ج2، ص ص.125-126.

Mission Scientifique du Maroc, «Chronique de la Dynastie Alaouite du Maroc», in Archives Marocaines, Volume X, Paris, 1907, p.279, 282, 283

[9] - محمد بن محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية...، م.س، ج2، ص.273.

Georges Salmon, «Le droit d'asile des Canons», in *Archives Marocaines*, Publié par La Mission Scientifique du Maroc, Paris, Tome III, 1905, p.146.

وإلى جانب حرم مولاي إدريس، كانت دُور الشرفاء الأدارسة بفاس هي الأخرى بمثابة حُرُم موقرة، لها هيبتها وقدسيتها في نفوس أفراد المجتمع الفاسي، يسهر أصحابها على توفير الملجأ والأمان لكل مَن استجار بهم من الجناة، أو لمن فر من ظلم الظلمة الطغاة، نظراً لمنزلتهم المعنوية الرفيعة التي كانوا يتبوَّؤونها في سُلم التراتب الاجتماعي، بما كانوا محمولين عليه عبر القرون والسنين من «البر والإكرام، والمحاشاة والاحترام، والرعي المستدام»[1].

ويمكن أن نستدل على ذلك بما أورده صاحب «الدر السني» في بحر كلامه عن فروع الشرفاء الأدارسة الجوطيين بفاس، من أن بيت الأشراف الطاهريين الجوطيين كان منذ القديم وما يزال إلى وقته يُعرف له التقدم والسَّبقية في هذا الأمر، إذ «لا محافل فخر إلا وهم أربابها، ولا بيوت مجد إلا وهم أبوابها، دأبهم السعي بين الناس في إصلاح ذات البين، وارتكابهم في حوائجهم كل صعب وهين، قصدهم الناس من بين سائر الأشراف بالسفارة والوساطة، وفتحوا لهم في ذلك باب القبول ومَدُّوا لهم بساطه، ولحظوهم بعين المودة النبوية في سائر شؤونهم العلية، حتى كان إذا استجار بهم الجاني يُجار، ويُقال له من أجل ذلك العِثار»[2].

كما كانت دُور مقدمي الحرم الإدريسي مشمولة أيضاً بالتوقير والاحترام، يسري عليها ما يسري على دُور الشرفاء المذكورين من الحُرْمة والمهابة، يأوي إليها اللاجئون والغرباء رغبة في الحماية والأمان، فيجدون فيها ملاذاً آمناً، لاسيما وأن أربابها أشخاص مُبجَّلون من قِبل عامة أهل فاس وخاصتهم، ولهم حظوة متميزة لدى الدوائر المخزنية، يباشرون مهامهم الموكولة إليهم بمقتضى ظهائر سلطانية شريفة، تُجدَّد لهم عبر تعاقب السنين والأجيال.

وتعتبر أسرة الرامي من أشهر الأسر الفاسية التي تصدَّرت خِطة التقديم على الحرم الإدريسي على عهد العلويين، نذكر من أعلامها طائفة ممن أُسندت إليهم الخطة المذكورة،

---

[1] -علي الجزنائي، جَنَى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية 1991، ص.28.

[2] - عبد السلام بن الطيب القادري، الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني، المطبعة الحجرية، فاس، 1891، ص.17.

منهم الحاج إدريس بن إدريس الرامي، مقدم الحرم الإدريسي على عهد السلطان مولاي سليمان، الذي كان مسموع الكلمة بين سائر الأشراف الأدارسة بفاس، يتدخل بينهم في المخاصمات لإصلاح ذات بينهم، ويأخذ بيد المحترمين بحرم مولاي إدريس، ويوصل كلامهم إلى السلطان لينظر في شأنهم. وعلاوة على ذلك، كانت داره مقصداً للاجئين، يَرِد عليه الواردون والغرباء، فينزلون عنده نُزلاً طيباً، مترفلين في أمن وعافية، أياماً وشهوراً إلى ما شاء الله لهم أن يمكثوا من الوقت.

فقد فتح داره في وجه الجاسوس الإسباني الرحالة دومينگو باديا الشهير بـ(علي باي العباسي)، بعدما حامت حول هويته ومهمته الشكوك، حيث يُستفاد من قراءتنا لـ«زهر الآس»، أن مؤلِّفَه وقف على رسم لفيف يشهدون بمعرفتهم لعلي باي المذكور، الذي «كان نازلاً عند مقدم الحرم الإدريسي الحاج إدريس بن الحاج إدريس الرامي بامرأة علجاء، وبقي معها نازلاً عنده، ثم سافر بها لوجدة، ومنها للعرائش، فركب البحر متوجهاً لناحية المشرق، ورجعت الأَمَة لفاس حاملاً منه بملك اليمين لدار قَيِّم الحرم المذكور، وبقيتْ بها إلى أن وَلدتْ ولداً ذكراً، وسُمِّي عثمان، بعد أن أحضر جماعةً لوليمة تسميته بتاريخ جمادى الأولى من عام 1221هـ(1806م)، مسجلة لدى القاضي السيد أحمد بن التاودي ابن سودة المري، وعلى ذلك شهادات عدول»[1].

وتقلد الخطة المذكورة بعده ثلة من أعيان أسرته كما يبدو ذلك من نصوص الظهائر السلطانية التي بيد أعقابه، منهم الحاج عبد السلام بن محمد بن عبد السلام بن إدريس الرامي(ت.1316هـ/1898م)، ومحمد المدعو ماني بن مَحمد بن إدريس بن إدريس الرامي، اللذان عيَّنهما السلطان مولاي الحسن مُقدَّميْن على الحرم الإدريسي في يوم 20 ربيع الثاني عام 1304هـ/1886م، بموجب ظهير شريف، أسدل عليهما فيه رداء التوقير والاحترام، وأسند

[1]- عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2002، ج1، ص.423.

لهما تدبير شؤون المستجيرين بالحرم السالف الذكر، والتفاوض في أمرهم مع السلطان مثلما كان الحال سائداً مع أسلافهما، وذلك بقوله: «وأَذنَّاهما في الأخذ بيد المحترمين، وإبلاغ كلامهم إلينا كسائر من سلف من المقدمين»[1] .

وهو القول نفسه الذي تكرر ذكره في الظهائر التي نفَّذها السلاطين اللاحقون لأفراد هذه الأسرة، مثل ظهير السلطان مولاي عبد العزيز بشأن إقرار الحاج عبد السلام الرامي المذكور على ولاية الحرم الإدريسي، بتاريخ 28 محرم عام 1313هـ/1895م[2]. وظهيراه أيضاً حول إقرار السيد محمد بن الحاج عبد السلام الرامي على تقديمه للحرم المذكور،المؤرخان في6صفر عام 1316هـ/1898م، وفي 22 شعبان عام 1319هـ/1901م، والمتضمنان للعبارة المذكورة كما يلي: «وأذنا له في استنابة مَن شاء في جميع ما أُسند إليه، وفي الأخذ بيد المستجيرين، وإبلاغ كلامهم إلينا كسائر من درج من المقدمين»[3] .

والأمر نفسه بالنسبة لظهير السلطان مولاي عبد الحفيظ للسيد أحمد بن عبد السلام الرامي وابن عمه الحاج التهامي بن الحاج بوجيدة، بتولي النظر على الحرم المذكور بتاريخ 19 رجب عام 1326هـ/1908م[4]. وظهيره أيضاً للسيد محمد بن الحاج عبد السلام الرامي المتقدم الذكر في شأن إقراره على وظيفته المذكورة، بتاريخ 21 جمادى الثانية عام 1326هـ/1908م[5] .

وظهير خلفه السلطان مولاي يوسف للسيد أحمد بن عبد السلام الرامي السالف الذكر في شأن تعيينه ناظراً على الحرم نفسه بتاريخ 13 شوال عام 1330هـ/1912م[6]. وغير ذلك من الظهائر المماثلة، التي تنص على تنظيم أمور الاستحرام بحرم مولاي إدريس، وتدبير شؤون التفاوض مع المستحرمين للوصول إلى الحلول المناسبة.

---

[1] – المصدر نفسه، ج1، ص. ج1، ص.429.
[2] – المصدر نفسه، ج1، ص. ص.430.
[3] – المصدر نفسه، ج1، ص. ص.432.
[4] – المصدر نفسه، ج1، ص.440.
[5] – المصدر نفسه، ج1، ص. ص.434.
[6] – المصدر نفسه، ج1، ص. ص.435.

وعموماً، فإن الحرم الإدريسي، وما إليه من دُور الشرفاء ودُور المقدمين، كان منذ أزمان بعيدة وإلى عهد قريب كعبة المضطرين، ووجهة الخائفين المترقبين من حَدٍّ يلاحقهم، أو ثأرٍ يتهددهم، استمد هذه الميزة الاجتماعية مما يحتله صاحبه الولي الصالح مولاي إدريس الأزهر من مكانة روحية فائقة في تاريخ المغرب بوجه عام، وفي تاريخ مدينة فاس على وجه التخصيص، وكذا مما تحكي المصادر التاريخية والذاكرة الجمعية عن شخصه من أخبار ومناقب وكرامات سنية، تبرز مقامه الرفيع بين سائر الأولياء. فمن أمثلة ذلك ما ورد عن الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي أنه شهد بكون هذا الولي مولاي إدريس كان رحمه الله «من أهل الخصوصية والتصريف»، و«من أهل القطبانية، وممن يتصرف حيًّا وميتاً في عالم الملك والملكوت، كما هو شأن الخواص والأكابر». وكذلك ما يُذكر عن الشيخ سيدي أحمد التجاني أنه كان يقول: «لو علم أهل فاس قدر مولانا إدريس لذبحوا عليه أولادهم!». ثم ما يُحكى عن بعض الأولياء المتأخرين أنه كان يقول فيه إنه «آدم الأولياء»، وأنه «لو قدر أن يكون بعد النبي صلى الله عليه وسلم نبي لكان مولاي إدريس نبيًّا!»[1]. وما قال فيه أيضاً مؤلف مناقبه أحمد بن عبد الحي الحلبي صاحب «الدر النفيس» من أن «بدايته رضي الله عنه هي نهاية غيره من الأولياء، لأنه حاز عناية النبوة وعناية الولاية»، ولذلك حلاَّه بـ«سلطان الأولياء، ونخبة الأصفياء، وصاحب المدد المحمدي الذي لا يعدله مدد، والفرد الأحمدي الذي لا يوازيه أحد، والشمس التي إذا طلعت لم تر للكواكب أثرا، والأمير الذي إذا حضر لم يبق تصرف للوزراء»[2].

ولأجل هذه المناقب التي حازها، والمراتب العلى التي اعتلاها، كان «أكابر الأولياء يأتون لحرمه من أقصى البلدان زائرين، وبقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم متشفِّعين ومتوسلين»[3] على حد قول صاحب «تحفة الإخوان».

---

[1] – محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس...، م.س، ج1، ص.82.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص.83.

[3] – حمدون الطاهري الجوطي، تحفة الإخوان...، م.س، ص.271.

كما استمد الحرم المذكور تلك الميزة كذلك مما أُضفي على حفدة مولاي إدريس من هالة التبجيل والإكبار، اعتباراً لنسبهم الشريف، الذي قال عنه عبد الرحمن ابن خلدون إنه «قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه، إذ هونقلُ الأمة والجيل من الخلف، عن الأمة والجيل من السلف»[1]. ولأجل ذلك «كثر تعبير العامة عنهم بمخ الشرف، ووصفُهم لهم بالنخبة واللباب»[2]. وصاروا بهذه الصفة فئة دينية واجتماعية متميزة، لهم تمثيل اجتماعي مهم على المستوى الوجداني الجماعي من جهة، بحيث بات «يتبرك الناس بشهادتهم في الصدَقات والصدُقات، ويتوسلون بهم في الشفاعات، ويستسقون بأطفالهم في الاستسقاءات»[3]. ولهم حضور ملحوظ لدى الدوائر المخزنية من جهة أخرى، إذ لم تكن البيعة تنعقد إلا بمحضر نقيب الشرفاء الأدارسة، وكان هذا النقيب إذا حضر قام له السلطان ومَن بمجلسه إجلالاً وإكراماً له ولنسبته الشريفة[4].

وصفوة القول، إن الحديث عن الحرم الإدريسي هو حديث عن مؤسسة دينية قائمة الذات، أسدتْ خدمات اجتماعية لصالح المجتمع منذ انبثاقها خلال العصر المريني، وفي مقدمتها مهمة حماية المستجيرين واحتضانهم، وارتبط اسمها بفئة اجتماعية ملحوظة الجانب من قبل الحكام والمحكومين على حد سواء، تقلدت خططاً معنوية وازنة، وفي طليعتها نقابة الأشراف، وولاية الحرم الإدريسي، وتبوأت في بعض السنين مكانة سياسية مرموقة، بعدما أفلحت في تأسيس دولة إدريسية ثانية، بزعامة نقيب الأشراف الأدارسة أبي عبد الله محمد

---

[1] – عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دراسة وتحقيق أحمد الزعبي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى 2001، ص.57.

[2] – عبد السلام بن الطيب القادري، الدر السني...، م.س، ص.17.

[3] – علي الجزنائي، جنى زهرة الآس...، م.س، ص.28.

[4] – أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج5، ص.281؛ أحمد بابا بن أحمد أقيت التنبكتي التكروري، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون، مطبعة المعاهد، القاهرة، 1932، ص.253؛ محمد ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص.162؛ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س،، ج4، ص.115؛ محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع...، م.س، ص.63.

بن علي العمراني الجوطي الإدريسي المعروف بالحفيد في سنة 869هـ/1465م، على أنقاض الدولة المرينية البائدة[1].

[1] - تأسست الدولة/الإمارة الإدريسية الثانية في سنة 869هـ/1465م على يد النقيب الشريف أبي عبد الله الحفيد محمد بن على العمراني الجوطي الإدريسي القيطوني، وذلك بعد مقتل آخر سلطان مريني هو عبد الحق الثاني بن أبي سعيد عثمان، لكن هذه الإمارة الإدريسية لم تستمر أكثر من ست سنوات، إذ سرعان ما أطاح بها حاكم أصيلا أبو عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي في سنة 875هـ/1471م، فخرج حينئذ أبو عبد الله الحفيد من فاس مع أهله ورحل إلى تونس ملتجئاً عند ملوكها الحفصيين، وفي عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي رجع الأدارسة من تونس إلى فاس، واستعادوا دار القيطون والنقابة والولاية على ضريح جدهم مولاي إدريس الأزهر، وأخذ الناس يدعونهم بالتونسيين، فكرهوا ذلك واستبدلوا به الإدريسيين، وهي النسبة التي ظلوا يحتفظون بها حتى يومنا هذا. انظر: أحمد بن محمد ابن القاضي المكناسي، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى 1971، ج2، ص.128؛ ج3، ص ص.156-160؛ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، الطبعة الأولى 1973، ج1، ص.211؛ محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...، م.س، ج1، ص ص.193-195؛ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س، ج4، ص ص.114-120؛ محمد حجي، مادة «الإدريسي (أسرة)»، في معلمة المغرب، ج1، نشر مطابع سلا، سلا، 1989، ص ص.275-277؛
Spillmann, Esquisse d'histoire..., op.cit, p.48.

تَطَوُّرُ الفِكرِ الفاسِيِّ منَ القَولِ بِالإمامَة، إلى القَولِ بِالوِلايَة: اَلمَولى إدريسُ نَموذَجا

جَعفَرُ ابنُ الحاجِّ السُّلَمِيّ
كُلِّيَّةُ الآداب – تِطوان

مُقَدِّمة

لا شك في أن تاريخ الأفكار والمفاهيم، لا يقلّ أهمِّيَّةً عَن تاريخِ الحوادث والدول. ومن هاذه الأفكار والمفاهيم التي يستحسن الانتباه إلى أهميتها، مفهوم "الإمامة الإدريسية" عند المؤرخين والمفكرين الفاسيين، وكيف تحول إلى مفهوم الولاية والقطبانية العظمى، عبر القرون.

وَمِنَ الملاحَظِ كَثيرًا كَذالِك، وُجودُ تَقصيرٍ فادِحٍ في الكِتابَةِ عَنِ الأَدارِسَة، في عَصرِهِم وَبَعدَ عَصرِهِم. بَل لِنَقل في كَثيرٍ مِنَ الطُّمَأنينَةِ وَاليَقينِ العِلمِيّ، إنَّ ما نَعرِفُ عَنِ الأَدارِسَة، أَكثَرُهُ راجِعٌ إلى المصادِرِ المشرِقِيَّةِ وَالأَندَلُسِيَّة، وَإنَّ أَكثَرَهُ كَذالِك، مُتَأَخِّرٌ عَنهُم.

فَلنَترُكِ الآنَ ما كَتَبَهُ المشرِقِيّونَ وَالأَندَلُسِيّون، وَلنَنظُرِ الآنَ إلى ما بِأَيدينا في المصادِرِ المغرِبِيَّة، وَلا سِيَما الفاسِيَّة، عَنِ الأَدارِسَة، وَلنَنظُر إلى رُؤيَةِ هاؤُلاءِ المثَقَّفينَ الفاسِيّين، بِمَولِدِهِم أَو مَحتِدِهِم، أَو بِاستِقرارِهِم في فاسَ الزَّمَنَ الطَّويل، إلى المولى إدريس، وَكَيفِيَّةِ تَمَثُّلِهِم وَتَصَوُّرِهِم لَهُ عَبرَ القُرون، بِرَصدٍ تاريخِيٍّ تَعاقُبِيٍّ لِهاذِهِ الرُّؤيَة، وَكَيفِيَّتِها.

1 . عَبدُ العَزيزِ المَلزوزِيُّ المِكناسِيّ، (–697هـ) أَوالقَفزُ عَلى التّاريخِ الإدريسِيِّ جُملَةً وَتَفصيلا

كانَ أَبوفارِس، عَبدُ العَزيزِ الملزوزِيُّ المِكناسِيّ، أَوَّلَ مُؤَرِّخٍ مَرينِيّ، عَلى حَسَبِ عِلمِنا، وَعَلى حَسَبِ ما وَصَلَ إلَينا مِنَ التُّراثِ التّاريخِيِّ المرينِيّ. وَبِالرَّغمِ مِن أَنَّهُ نَظَمَ مَنظومَتَهُ التّاريخِيَّةَ

في التّاريخ، الّتي بَلَغَت 2214 بَيتا، وَاستَعرَضَ فيها التّاريخَ الإسلامِيَّ مِن بِدايَتِهِ إلى زَمَنِ المرينِيّينَ في القَرنِ السّابع، وَبِالرَّغمِ مِن أَنَّ المرينِيّينَ كانوا قَد حَوَّلوا كُرسِيَّ الدَّولَةِ المغرِبِيَّة، مِن مُرّاكُشَ إلى فاس، عاصِمَةِ الأَدارِسَةِ القَديمَة، فَإِنَّهُ قَدِ اختارَ أَن يَسكُتَ عَنِ التّاريخِ الإدريسِيِّ سُكوتًا بَليغا. فَلَم يَزِد عَلى أَن قالَ في إشارَةٍ عارِضَة:

1. وَابنُ أَبي العافِيَةِ المِكناسي * بَعدَهُم، وَلَم يَزَل ذا باسِ

2. وَلَم يَزَل يُقاتِلُ الأَدارِسَةْ * حَتّى غَدَت عُلياهُ بَعدُ دارِسَةْ " [1]

لَيسَ لَنا أَن نَستَغرِبَ كَثيرًا مِن هاذا الموقِف، مَوقِفِ التَّجاهُلِ وَالقَفزِ عَلى التّاريخِ الإدريسِيّ. فَلَعَلَّهُ هُو الأَصلُ فيما وَصَلَنا مِنَ الكِتابَةِ التّاريخِيَّةِ المغرِبِيَّة، إلى نِهايَةِ القَرنِ السّابع. إنَّهُ مَوقِفُ القاضي عِياض، (544هـ) وَمُحَمَّدِ بنِ قاسِمٍ التَّميمِيِّ الفاسِيّ، (603هـ)، وَعَبدِ الواحِدِ المرّاكُشِيّ، (بعدَ 620هـ). وَهُوَ مَوقِفُ تَفسيرُهُ لَيسَ بِالأَمرِ الهَيِّن.

بَيدَ أَنَّ نِهايَةَ القَرنِ السّابع، وَبِدايَةَ الثّامِن، جَعَلَت حَدًّا لِمَوقِفِ التَّجاهُلِ وَالقَفزِ عَلى التّاريخِ الإدريسِيّ، وَشَرَعَت في تَشكيلِ وَعيٍ جَديدٍ بِالتّاريخِ الإدريسِيّ، وَرُبَّما في استِثمارِهِ في التَّحَوُّلاتِ الاِجتِماعِيَّةِ وَالسِّياسِيَّةِ الَّتي عَرَفَها المغرِبُ ابتِداءً مِن هاذا القَرن.

2. إبنُ أَبي زَرع: (كانَ حَيًّا عامَ 726هـ)، وَإحياءُ التّاريخِ الإدريسِيِّ بِرُؤيَةٍ سُنِّيَّة

يُوَطِّئُ ابنُ أَبي زَرعٍ الفاسِيّ، لِمَشروعِ الكِتابَةِ "في أَخبارِ مُلوكِ المغرِب، وَتاريخِ مَدينَةِ فاس"، الَّذي يَعكِسُ تَصَوُّرَهُ وَتَصَوُّرَ القَرنِ الثّامنِ الهِجريّ، لِتاريخِ فاس، وَأَدارِسَتِها، بِتَوطِئَةٍ سُنِّيَّةٍ خالِصَةٍ لِأَهلِ البَيت. يَقول:

"صَلّى اللَّهُ عَلَيهِ وَعَلى ءالِهِ الطَّيِّبين، وَأَزواجِهِ الطّاهِرات، الَّذينَ أَذهَبَ اللَّهُ عَنهُمُ الرِّجسَ وَخَصَّهُم بِتَطهيرِه.

[1]. نَظمُ السُّلوك: 47.

وَرَضِيَ اللَّهُ عَن صَحابَتِهِ السّابِقينَ بِتَصديقِه، وَنُصرَتِهِ وَتَعزيرِهِ وَتَوقيرِه، وَعَنِ التّابِعينَ لَهُم بِإحسانٍ إلى يَومِ الدّين." [1]

وَانطِلاقًا مِن هاذِهِ الرُّؤيَة، فَإنَّهُ في تَوطِئَةِ مَشروعِهِ هاذا، يَدعو لِإمامِ الزَّمانِ المرينِيّ، وَيُلَقِّبُهُ بِـ"الخَليفَة"، وَبِـ"الإمام"، وَبِـ"أَميرِ المسلِمين"، فَضلاً عَن وَصفِ أَبيهِ، بِـ"أَميرِ المؤمِنين"، وَبِأَوصافٍ أُخرى، كَـ"العَدل"، وَ" القائِمِ بِالحَقّ ". يَقول:

"أَمّا بَعد: أَطالَ اللَّهُ بَقاءَ مَولانا الخَليفَةِ الإمام ... أَميرِ المسلِمين، أَبوسَعيدٍ عُثمان، إبنِ مَولانا الإمامِ المظَفَّرِ المنصور، ... اَلإمامِ العَدلِ القائِمِ بِالحَقّ، أَميرِ المؤمِنينَ أَبي يوسُف، يَعقوبَ بنِ عَبدِ الحَقّ." [2]

وَفي تَوطِئَةِ مَشروعِهِ التّاريخِيِّ هاذا، مَشروعِ كِتابَةِ تاريخِ " مُلوكِ المغرِب، وَتاريخِ مَدينَةِ فاس""، بِرُؤيَةٍ سُنِّيَّة، يَستَعمِلُ أَلقابًا أَربَعَة: اَلأَمير، وَالملِك، وَالخَليفَة، وَالإمام. وَلِكُلِّ لَقَبٍ مَفهومُهُ التّاريخِيُّ وَالمذهَبِيّ، كَما هُوَ مَعلوم، وَإن كانَ فيها تَداخُلٌ يَحتاجُ إلى التّنبيهِ عَلَيه. يَقول: "وَأَذكُرُهُم أَميرًا بَعدَ أَمير، وَمَلِكًا بَعدَ مَلِك، وَخَليفَةً بَعدَ خَليفَة ... مِن أَوَّلِ دَولَةِ الإمامِ إدريسَ بنِ عَبدِ اللَّهِ الحَسَنِيّ." [3]

وَفي هاذا الصَّدَد، يَلزَمُنا أَن نُنَبِّهَ عَلى أَنَّ ابنَ أَبي زَرعٍ الفاسِيّ، يُلَقِّبُ المولى إدريس، اَلمؤَسِّسَ لِلدَّولَةِ الإدريسِيَّة، بِـ"الإمام"، وَهُوَ لَقَبٌ يَختَزِنُ حَسّاسِيّاتٍ دينِيَّةً وَمَذهَبِيَّة، سُنِّيَّةً وَشيعِيَّة، تَعكِسُ البَحثَ الدّائِبَ عِندَ المفَكِّرينَ المسلِمين، عَنِ الشَّرعِيَّةِ الدّينِيَّةِ وَالسِّياسِيَّة. وَقَد لَقَّبَ بِلَقَبِ الإمامَةِ كُلاًّ مِنَ المولى إدريسَ الأَوَّل، وَابنِهِ إدريسَ الثّاني. يَقول:

"اَلخَبَرُ عَن بَيعَةِ الإمامِ إدريسَ الحَسَنِيّ". [4]

---

[1]. اَلأَنيسُ المطرِب: 12.
[2]. اَلأَنيسُ المطرِب: 12-13
[3]. اَلأَنيسُ المطرِب: 13.
[4]. اَلأَنيسُ المطرِب: 20.

"اَلخَبَرُ عَن دَولَةِ الإمامِ إدريسَ بنِ إدريسَ الحَسَنِيّ". [1]

بَل لَقَّبَ أَخاهُ مُحَمَّدًا النَّفسَ الزَّكِيَّة، إبنَ عَبدِ اللَّهِ الكامِلِ، بِالإمامَة، وَإن لَم يَستَتِبَّ لَهُ عَرشٌ وَلا دَولَة. يَقول:

"كانَ السّبَبُ في دُخولِ الأَدارِسَةِ الحَسَنِيّينَ المغرِب، وَتَمَلُّكِهِم عَلَيه، أَنَّ الإمامَ مُحَمَّدَ بنَ عَبدِ اللَّه ... كانَ قامَ عَلى أَميرِ المسلِمين، أَبي جَعفَرٍ المنصورِ العَبّاسِيِّ بِالحِجاز ..." [2]

لاكِنَّ الإمامَةَ تَتَوَقَّفُ عِندَ الإدريسَيْن. أَمّا عَقِبُهُما، فَلَهُ أَلقابٌ أَخرى عِندَ ابنِ أَبي زَرع، وَإنِ استَتَبَّ لَهُمُ العَرشُ وَالسُّلطان. يَقول:

"اَلخَبَرُ عَن دَولَةِ الأَميرِ مُحَمَّد ابنِ الإمامِ إدريسَ بنِ إدريسَ الحَسَنِيّ" [3]

أَمّا اَلحَسَنُ بنُ كَنّون، فَهُوَ" ءاخِرُ مُلوكِ الأَدارِسَةِ بِالمغرِب." [4]

أَمّا عَدُوالأَدارِسَةِ الأَشهَر، فَهُولا إمامٌ وَلا مَلِكٌ وَلا خَليفَة. يَقولُ عَنِ ابنِ أَبي العافِيَة: "اَلخَبَرُ عَن دَولَةِ موسى بنِ أَبي العافِيَة" [5] فَالأَدارِسَةُ عِندَ ابنِ أَبي زَرعٍ إذَن، "أَئِمَّة"، بِالمفهومِ السُّنِّيّ، وَأُمَراء، (دونَ تَحديدِ مُؤمِنينَ أَو مُسلِمين)، وَمُلوك.

وَلَيسَ عَبَثًا في نَظَري، أَن خَصَّ ابنُ أَبي زَرع، الإدريسَيْنِ الأَوَّلَين، بِـ"الإمامَة"، وَهُوَ اللَّقَبُ الَّذي لَم يَمنَحهُ لِلحاكِمِ الإدريسِيِّ الثّالِث، اَلَّذي قَسَّمَ المغرِبَ بَينَ إخوَتِه. وَلَيسَ عَبَثًا في نَظَري، أَن لَقَّبَ ءاخِرَ الأَدارِسَةِ بِـ"المِلك". إنَّ الأَدارِسَةَ عِندَ ابنِ أَبي زَرعٍ ثَلاثَةُ أَقسام: فَالأَوائِل، اَلَّذينَ كانَت لَهُم دَولَةٌ كَبيرَةٌ مُمتَدَّة، وَسُلطانٌ واسِع، هُم (بَل هُما) أَئِمَّة. وَالأَواسِط،

---

[1]. اَلأَنيسُ المطرِب: 25.
[2]. اَلأَنيسُ المطرِب: 15.
[3]. اَلأَنيسُ المطرِب: 51.
[4]. اَلأَنيسُ المطرِب: 89.
[5]. اَلأَنيسُ المطرِب: 83.

اَلَّذينَ فَرَّقوا المغرِبَ وَوَزَّعوهُ إلى دُوَيلات، هُم أُمَراء. والَّذينَ ضَعُفوا جِدّا حَتّى ذَهَبَت عَلى أَيديهِم دَولَةُ الأَدارِسَة، وَلَم يَحكُموا مِنَ المغرِبِ إلاّ فاس، أَوبَعضَ المدُن، هُم "مُلوك".

وَعُمومُ الأَدارِسَة، في عُمومِ تَصَوُّرِ ابنِ أَبي زَرع، عَلى اختِلافِ أَلقابِهِم، "كانوا يُنازِعونَ الخُلَفاءَ [عبّاسِيّينَ وَأُمَوِيّينَ أَندَلُسِيّين، وَفاطِمِيّين] على دَركِ الخِلافَة، وَيُقعِدُهُم ضَعفُ سُلطانِهِم، وَقِلَّةُ مالِهِم." [1] فَصِراعُهُم إذَن كانَ لأَجلِ الوُصولِ إلى الخِلافَة. وَهُوَ ما لَم يَصِل إلَيه، أَئِمَّتُهُم وَأُمَراؤُهُم وَمُلوكُهُم.

لَيسَتِ"الإمامَةَ" الإدريسِيَّةُ لِلإدريسَيْن، إمامَةً وِراثِيَّةً، ذاتَ مَفهومٍ غَيبِيٍّ روحِيّ، كَما هُوَ الحالُ عِندَ الشّيعَة. فَقَد كانا إمامَين، أَمّا مُحَمَّدُ بنُ إدريس، فَهُوَ أَمير. وَأَمّا الحَسَنُ بنُ كَنّون، فَهُوَ "مَلِك"، وَإن لَم يَنفِ اختِلافُ الأَلقابِ هاذا عِندَهُ، الشَّرعِيَّةَ السِّياسِيَّةَ لِلأَدارِسَةِ جَميعا، عَلى اختِلافِ أَلقابِهِم. بَل هِيَ إمامَةٌ سُنِّيَّةٌ تَعكِسُ في المرءَاةِ إحساسَ المؤَرِّخِ الفاسِيِّ بِدَرَجَةِ العَظَمَةِ التّاريخِيَّةِ السِّياسِيَّةِ اَلزَّمَنِيَّة، بِالمفهومِ الغَربِيّ، لِلأَدارِسَة.

إنَّ هاذا التَّصَوُّرَ السُّنِّيَّ لِلإمامَة، هُوَ الَّذي يَجعَلُهُ يُلَقِّبُ أُمَوِيّي الأُندَلُسِ بِالإمامَة. يَقول:

"وَفي سَنَةِ ثَمانٍ وَثَلاثينَ وَمِئَتَين، تُوُفِّيَ الإمامُ عَبدُ الرَّحمانِ بنُ الحَكَم." [2]

"وَفي سَنَةِ ثَلاثٍ وَسَبعينَ وَمِئَتَين، تُوُفِّيَ الإمامُ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الرَّحمانِ بنِ الحَكَم، مَلِكُ الأَندَلُس." [3]

وَهُوَ الَّذي يَجعَلُهُ يَحتاطُ عِندَ الحَديثِ عَنِ الدَّولَةِ الفاطِمِيَّة، وَإسنادِ الأَلقابِ إلى رِجالِها. يَقول:

---

[1]. اَلأَنيسُ المطرِب: 95.
[2]. اَلأَنيسُ المطرِب: 96.
[3]. اَلأَنيسُ المطرِب: 97.

"وَفي سَنَةِ سَبعٍ وَتِسعينَ وَمِئَتَين، قَطَعَ الشّيعِيُّ دَعوَةَ بَني العَبّاسِ مِن إفريقِيَة، وَأَظهَرَ مَذهَبَه، وَتَسَمّى بِأَميرِ المؤمِنين، وَتَلَقَّبَ بِالمهدِيّ." [1]

وَهُوَ الَّذي يَجعَلُهُ يُلَقِّبُ المرابِطينَ وَالموَحِّدينَ وَالمرينِيّين، بِالأَلقابِ الَّتي ارتَضَوْها لِأنفُسِهِم، مِن إمارَةٍ لِلمُسلِمين، إلى إمارَةٍ لِلمُؤمِنين، إلى مُلوك. يَقول:

"اَلخَبَرُ عَن دَولَةِ الأَميرِ يوسُفَ بنِ تاشَفينَ اللَّمتونِيّ، أَميرِ المسلِمينَ وَسيرَتِهِ وَغَزَواتِه". [2]

"اَلخَبَرُ عَنِ الخَليفَةِ أَميرِ المؤمِنين، عَبدِ المؤمِنِ بنِ عَلِيٍّ الكومِيِّ الزِّناتِيّ." [3]

"اَلخَبَرُ عَن دَولَةِ الأَميرِ المبارَك، عَبدِ الحَقِّ بنِ مَحيو". [4]

"اَلخَبَرُ عَن دَولَةِ أَميرِ المسلِمين، يَعقوبَ بنِ عَبدِ الحَقِّ المرينِيّ." [5]

"اَلخَبَرُ عَن دَولَةِ مَلِكِ الزَّمان، وَسِراجِ الأَوان، اَلإمامِ السَّعيد، وَالخَليفَةِ الرَّشيد، أَميرِ المسلِمين، أَبي سَعيدٍ عُثمان". [6]

حَتّى إذا تَعَلَّقَ الأَمرُ بِآخِرِ الموَحِّدين، فَلَقَبُهُ عِندَ ابنِ أَبي زَرعٍ الفاسِيّ، لَيسَ هُوَ الإمامَ وَلا الخَليفَة، وَلا أَميرَ المؤمِنين، وَلا أَميرَ المسلِمين. وَإنَّما هُوَ "مَلِك". يَقول:

"اَلخَبَرُ عَن دَولَةِ إدريس، اَلمُلَقَّبِ بِأَبي دَبّوس، ءاخِرِ مُلوكِ بَني عَبدِ المؤمِن". [7]

إنَّ كُلَّ هاذا يَعني أَنَّ ابنَ أَبي زَرعٍ لَهُ مِن حَيثُ المبدَأ، تَصَوُّرُهُ لِلأَلقابِ السِّياسِيَّةِ الدّينِيَّةِ الكَبيرَة، فَهُوَ لا يَمنَحُها إلاّ لِمَن كانَ سُنِّيًّا عَظيمَ السُّلطان، قادِرًا عَلى جَمعِ فِئَةٍ عَظيمَةٍ مِنَ

---

[1]. اَلأَنيسُ المطرِب: 98.
[2]. اَلأَنيسُ المطرِب: 136.
[3]. اَلأَنيسُ المطرِب: 183.
[4]. اَلأَنيسُ المطرِب: 284.
[5]. اَلأَنيسُ المطرِب: 297.
[6]. اَلأَنيسُ المطرِب: 395.
[7]. اَلأَنيسُ المطرِب: 259.

المسلِمينَ تَحتَ لِوائِه، كَالمغرِبِ الأَقصى وَالأَندَلُس. فَإذا ضَعُفَ عَن ذالِك، وَاقتَصَرَ سُلطانُهُ عَلى قُطرٍ صَغير، أَومَدينَةٍ مُحَدَّدَة، كَفاسَ وَالبَصرَة، بِالنِّسبَةِ إلى أَواخِرِ الأَدارِسَة، أَومُرّاكُش، بِالنِّسبَةِ إلى أَواخِرِ المُوَحِّدين، فَإنَّ لَقَبَ الإمامِ وَأَميرِ المؤمِنينَ يَختَفي، وَيَحُلُّ مَحَلَّهُ لَقَبُ المَلِك. وَفي هاذا الصَّدَد، لَنا أَن نَستَنتِجَ أَنَّ لَقَبَ الإمام، اَلمَخوَّلَ لإدريسَ الثّاني، هُوَ لَقَبٌ سِياسِيّ، صادِرٌ عَن تَصَوُّرٍ سُنِّيٍّ لِلإمامَةِ وَالخِلافَة، يَعكِسُ مَدى سُلطَتِهِ في تَصَوُّرِ ابنِ أَبي زَرع.

3. أَبوالحَسَنِ الجزنائيّ: (كانَ حَيًّا في 766هـ): وَالمُزاوَجَةُ بَينَ الإمامَةِ السِّياسِيَّة، وَالوِلايَة

يُشارِكُ الجِزِنّائِيّ، ابنَ أَبي زَرعٍ الفاسِيّ، في القَرنِيَّة، فَكِلاهُما مِن أَهلِ القَرنِ الثّامِن، وَإن كانَ الجِزِنّائِيُّ مُتَأَخِّراً عَنِ ابنِ أَبي زَرعٍ الفاسِيِّ في الزَّمَن.

وَيُشارِكُهُ في مَشروعِ كِتابَةِ تاريخِ فاس، وَمَشروعِ إحياءِ التّاريخِ الإدريسِيّ. بَل يَستَفيدُ مِنِ ابنِ أَبي زَرعٍ الفاسِيّ، اِستِفادَةً واسِعَةً في هاذا الصَّدَد.

وَيُشارِكُهُ كَذالِك، في تَلقيبِ الإدريسَينِ الكَبيرَينِ بِالإمامَة، وَفي إيرادِ "كَراماتِ" الإمامَين. يَقول: "وَقَصَدَ النّاسُ نَحوَ الإمامِ إدريسَ بنِ إدريسَ مِن كُلِّ مَكان."[1]

"وَما زالَ حَفَدَةُ الإمامِ إدريسَ بنِ إدريس، رَضِيَ اللَّهُ عَنه، قاطِنينَ بِمَدينَةِ فاس، مُنذُ أُسِّسَت إلى زَمانِنا هاذا، مَحمولينَ عَلى البِرِّ وَالإكرام، وَالمحاشاةِ وَالاِحتِرام، وَالرَّعيِ المستَدام، عَلى مَرِّ اللَّيالي وَالأَيّام، يَتَبَرَّكُ النّاسُ بِشَهادَتِهِم في الصَّدَقاتِ وَالصَّدُقات، وَيَتَوَسَّلونَ بِهِم في الشَّفاعات، وَيَستَسقونَ بِأَطفالِهِم في الاِستِسقاءات:

1. أولوطَهارَةِ أَحسابٍ إذا انتَسَبوا * أَبدى السُّرورُ ابتِهاجًا كُلَّما فَخَروا

2. تَوارَثوا المجدَ عَن ءابائِهِم، فَلَهُم * فَوقَ السُّهى رُتَبٌ، مِن فَوقِها ظَهَروا

[1]. جَنى زَهرَةِ الآس: 17.

3. إذا تَضوَّعَ نَشرُ الحَمدِ عَن عَبَقٍ * فاعلَم بِأَنَّهُم في حينِهِ ذُكِروا"[1]

بَيدَ أَنَّهُ يُجاوِزُ ابنَ أَبي زَرعٍ قَليلا، في التَّصريحِ بِوَصفِ إدريسَ الأَوَّل، بِالوِلايَة.[2] يَقولُ مَثَلا:

"وَكانَ سَبَبُ قُدومِ وَلِيِّ اللَّهِ الصّالِحِ إدريس، مِنَ المشرِقِ إلى المغرِب ...". [3]، وَفي تَأكيدِ ظُهورِ جَسَدِ الإمامِ سَليمًا بَعدَ قُرونٍ مِن دَفنِه. يَقول:

"وَدُفِنَ إدريس، رَضِيَ اللَّهُ عَنه، بِخارِجِ بابِ وَليلي. وَلَم يَزَل النّاسُ يَعتَنونَ بِزِيارَةِ قَبرِه، وَيَدعونَ اللَّهَ في الحاجات، فَيُستَجابَ لَهُم. وَظَهَرَ جَسَدُهُ بِكَفَنِهِ في سَنَةِ ثَمانَ عَشرَةَ وَسَبعِ مِئَة. وَازدَحَمَ النّاسُ عَلَيهِ مِن سائِرِ أَقطارِ المغرِب، حَتّى خيفَتِ الفِتنَةُ بِسَبَبِ ذالِك، فَبَعَثَ مَولانا أَميرُ المسلِمين، أَبوسَعيدٍ بنُ يَعقوبَ بنِ عَبدِ الحَقِّ، تَقَبَّلَ اللَّهُ أَعمالَه، جَيشًا لِتَفريقِهِم عَنها، وَتَحسيمِ الفِتَن." كَذا وُقِفَ عَلَيهِ في أَمرٍ سُلطانِيٍّ يَقتَضي ذالِك.". [4]

وَبِالرَّغمِ مِن تَوارُدِ ابنِ أَبي زَرعٍ الفاسِيّ، وَأَبي الحَسَنِ الجِزنّائِيّ، عَلى تَدوينِ الأَشعارِ الوارِدَةِ في المولى إدريسَ الثّاني، وَسَيفِهِ الشَّهير، فَإِنَّ طابِعَ هاذِهِ الأَشعارِ هُوَ هُو. فَالمولى إدريسُ فيها لَيسَ ذا بُعدٍ وِلائِيٍّ روحِيّ، وَإِنَّما هُوَ حاكِمٌ كَسائِرِ الحُكّام، مِمَّن يُمدَحونَ وَيُهجَون. وَهاذا يَعني أَنَّ عُمومَ شُعَراءِ فاسَ الَّذينَ نَظَموا في هاذا الموضوع، وَالنّازلينَ بِها، كانوا حَتّى القَرنِ الثّامِن، ما يَزالونَ لَم يَستَوعِبوا "وِلايَةَ" الإدريسَين، وَلا أدمَجوا تَمامًا مَفهومَ الوِلايَةِ في تَصَوُّرِهِم للإمامِ المؤَسِّس.

"وَقالَ الأَميرُ الرَّئيسُ الأَوحَد، أَبو الوَليد، إسماعيلُ بنُ فَرَجِ ابنِ الأَحمَر: ...

---

[1]. جَنى زَهرَةِ الآس: 28.
[2]. جَنى زَهرَةِ الآس: 4.
[3]. جَنى زَهرَةِ الآس: 10.
[4]. جَنى زَهرَةِ الآس: 15.

1. رَءاها ابنُ إدريسَ مَقَرَّ خِلافَةٍ * فَجَرَّدَهُ عَزمًا لِأملاكِها الغُرِّ" [1]

وَقَد أَكّدَت قِصَّةُ ظُهورِ القَبرِ الإدريسِيِّ بِفاس، بِمَسجِدِ الشُّرَفاء، عامَ 841هـ، الوِلايَةَ الرَّسمِيَّةَ وَالشَّعبِيَّةَ لِلمَولى إدريسَ الثّاني.[2] وَقَد ناقَشَ أَمرَها في نِهايَةِ القَرنِ الحادي عَشَر، أَحمَدُ بنُ عَبدِ الحَيِّ الحَلَبِيّ. [3]

وَقَدِ استَمَرَّ الأَمرُ هاكَذا إلى القَرنِ الحادي عَشَر، فيما نَحسِب. فَابنُ القاضي المِكناسِيُّ الفاسِيّ، (1025هـ)، بِالرَّغمِ مِنِ اتِّكائِهِ عَلى ابنِ أَبي زَرعٍ في مُقَدِّمَةِ "جَذوَةِ الإقتِباس"، لا يَرى في الإدريسَينِ إمامَةً وَلا وِلايَة. فَها هُوَ يُخَصِّصُ فَصلاً في كِتابِهِ لِـ "مَن اسمُهُ إدريسُ مِنَ المِلوك":

إدريسُ بنُ إدريسَ بنِ عَبدِ اللَهِ الكاملِ الحَسَنِيّ:

إدريسُ بنُ إدريسَ بنِ عَبدِ اللَّهِ بنِ حَسَنِ بنِ الحَسَنِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبي طالِب."[4] وَيَتَحَدَّثُ عَن "سَبَبِ قُدومِ إدريس، رَضِيَ اللَّهُ عَنه، مِنَ المشرِقِ إلى المغرِب"[5]. وَها هُوَ قَلَّما يُلَقِّبُ إدريسَ الثّاني بِالإمامَة، وَلَو بِمَفهومِها عِندَ ابنِ أَبي زَرع، اَلَّذي يَكادُ يَنقُلُ مُقَدِّمَتَهُ نَقلا.[6]

بَيدَ أَنَّ المزاوَجَةَ بَينَ الإمامَةِ الإدريسِيَّة، وَبَينَ الوِلايَةِ الإدريسِيَّة، كَما عَبَّرَ عَنها أَبوالحَسَنِ الجِزنّائِيّ، في وُضوحٍ وَاقتِصاد، في القَرنِ الثّامِن، لَم يَحصُل لَها تَطَوُّرٌ واضِحٌ حَتّى غايَةِ مُنتَصَفِ القَرنِ الحادي عَشَرَ الهِجرِيّ. فَالعربيُّ الفاسيّ: (-1052هـ)، يَتَحَدَّثُ عَن "مَسجِد

---

[1]. جَنى زَهرَةِ الآس: 49.
[2]. اَلدُّرُّ النَّفيس: 304.
[3]. اَلدُّرُّ النَّفيس: 307.
[4]. جَذوَةُ الإقتِباس: 160.
[5]. جَذوَةُ الإقتِباس: 16/1.
[6]. جَذوَةُ الإقتِباس: 1/ 33.

الوَلِيِّ الإمام، إدريسَ بنِ إدريس، اَلشَّريفِ الحَسَنِيّ."[1] وَإن عَبَّرَ في اقتِصادٍ كَذالك، عَن مَوقِفِ الإيمانِ بِأَنَّ "كَرامَةَ" الوَلِيّ، لا تَنقَطِعُ بِمَوتِه، (بَل قَد تَظهَرُ بِمَوتِه، أَوبَعدَها)، إذ يَقولُ مُخاطِبًا بَعضَ النّاس: "إنَّكُم نَزَلتُم في حِجرِ سُلطانِ فاسَ وَإمامِها وَبانيها، فَلا تَخافوا ظُلمًا وَلا هَضما."[2]

4 . اَلقَرنُ الحادي عَشَرُ الهِجريّ، وَالإحياءُ الثّاني لِلتّاريخِ الإدريسِيّ أَبوعَبدِ اللّه، مُحَمَّدُ بنُ عَيشونَ الشراطُ الفاسِيّ، (.1109هـ)، وَأَبوالعَبّاس، أَحمَدُ ابنُ الحاجّ، (.1109هـ):

ما أَنِ انتَصَفَ القَرنُ اَلقَرنُ الحادي عَشَرُ الهِجريّ، حَتّى كانَ الفِكرُ الفاسِيّ، عَلى عُمومِه، مُهَيّأً لِأحياءِ التّاريخِ الإدريسِيِّ لفاس، بَل بِجَعلِهِ مَركَزَ الصَّدارَةِ في التَّفكيرِ الفاسِيّ. يَستَوي في هاذا المؤَرِّخون، كَالشَّرّاطِ الفاسِيّ، وَالشُّعَراء، كَأَحمَدَ ابنِ الحاجِّ السُّلَمِيّ، وَالنَّسّابونَ وَالصّوفِيَّة.

إنَّ ابنَ عَيشونَ الشَّرّاط، لَم يَجِد وَسيلَةً أَفضَلَ لِكِتابَةِ تاريخِ صُلَحاءِ فاس، مِن أَن يَنطَلِقَ في كِتابتِهِ بِالتَّنويهِ المطَوَّلِ بالمزايا الرّوحِيَّةِ لإمامِ فاس، اَلمولى إدريسَ الثّاني. يَقول:

"فَلنَبدَأ بِمَن يَجِبُ البَدءُ بِهِ وَتَقديمُه، وَإكبارُهُ بِالتَّصديرِ وَتَعظيمُه، وَهُوَ إمامُ فاسَ وَسُلطانُها وَبانيها، وَواسِطَةُ عِقدِها، وَحِرزُها وَبَرَكَتُها وَأَمانُها، وَمَن هِيَ وَأَهلُها وَما عَمِلوهُ مِن عَمَلٍ صالِحٍ في ميزانِه، وَمُسَطَّرٌ في صَحيفَتِهِ وَديوانِه.

مَولانا أَبوالعَلاء، إدريس، نَفَعَنا اللّهُ بِبَرَكاتِه، وَماذا عَسى أَن أَقولَ أَو أُثنِيَ بِهِ عَلى مَن هُوَ مِن نَسلِ سَيِّدِ أَهلِ الأَرضِ وَالسَّماوات، وَمَن فاضَت مِن نورِهِ جَميعُ الكائِنات، وَمَن كانَ خادِمُهُ الأَمينُ جِبريل، فَكانَ السَّفيرَ بَينَهُ وَبَينَ المَلِكِ الجَليل، بِالوَحيِ وَالتَّنزيل.

---

[1]. مِرءاةُ المحاسِن: 85.

[2]. مِرءاةُ المحاسِن: 85.

وَنَسَبُ هاذا السَّيِّدِ الشَّريف، مِن رَسولِ اللَّه، (ص)، قَريب، فَإِنَّهُ مَولانا إدريسُ بنُ عَبدِ اللَّهِ بنِ الحَسَنِ المُثَنّى بنِ الحَسَنِ السِّبطِ بنِ عَلِيٍّ وَفاطِمَة، بِنتِ رَسولِ اللَّه، (ص)، وَجَمَعَ بَينَ شَرَفِ الطّين، وَشَرَفِ الدّين، وَالعِلمِ وَالعَمَل، وَجُمِعَ لَهُ بَينَ بُنُوَّةِ رَسولِ اللَّه، (ص)، وَالخِلافَةِ وَالعِلمِ وَالوِلايَة، فَلا أَشرَفَ مِن هاذا، وَلا أَعلى وَلا أَسنى، وَلا أَزكى وَلا أَطهَر، وَلا أَنوَهَ وَلا أَشهَر.

وَمَقامُهُ عِندَ أَهلِ بَلَدِهِ، وَالحَمدُ لِلَّه، أَعرَفُ مِن أَن يُعَرَّفَ بِه، وَرِيحُهُ بَينَهُم لا يُشتَبَه، وَمَكانَتُهُ مِن قُلوبِهِم جارَتِ الغايَة، وَفَضلُهُ ضَرورِيٌّ لِكُلِّ أَحَد، فَلا يَحتاجُ إلى إطالَةِ كَلام. وَمَن أَرادَ ذالِك، فَكُتُبُهُ مُيَسَّرَةٌ مَعروفَة، وَأَخبارُهُ فيها مُدَوَّنَةٌ مُسَطَّرَة.

ثُمَّ لِنَبدَأ مِن أَهلِ بَلدَتِه، بِمَن هُوَ في جِهَةِ قِبلَتِه ..." [1]

أَمّا القاضي أَبوالعَبّاس، أَحمَدُ ابنُ الحاجّ، (1109هـ) فَلَهُ قَصيدَتانِ في مَدحِ المولى إدريس الثاني[2]، يَصِفُهُ فيهِما بِالوِلايَةِ وَالشَّرَف، وَيَتَوَسَّلُ بِهِ فيهِما. وَلَعَلَّهُ مِن أَوَّلِ مَنِ افتَتَحَ مِنَ الشُّعَراءِ ما يُمكِنُ أن نُسَمِّيَهُ بِالإدريسِيّات، أوشِعرِ التَّوَسُّلِ بِالمولى إدريس الثّاني.

بَيدَ أَنَّ مَفهومَ "وِلايَة" المولى إدريسَ الثّاني، بِالرَّغمِ مِنَ التَّنويهِ المطَوَّلِ لِلشَّرّاطِ وَمَدائِحِ شُعَراءِ فاس، لَم يَكُن قَد تَطَوَّرَ في الفكرِ الفاسِيّ، حَتّى تُنسَبَ إلَيهِ "القُطانِيَّةُ العُظمى". فَهاذا المؤَرِّخُ النَّسّابَة، عَبدُ السَّلامِ بنُ الطَّيِّبِ القادِرِيّ، (-1110هـ)، في مَنظومَتِهِ "الإشراف، عَلى نَسَبِ الأَقطابِ الأَربَعَةِ الأَشراف"، لَم يَجعَلِ المولى إدريسَ مِنَ الأَقطاب، وَلا مِنَ الأَربعَةِ الأَقطاب، وَلا صاحِبَ طَريقَةٍ صوفِيَّة؛ يُدعى النّاسُ على الإنتِسابِ إلَيها. بَل أَشارَ إلَيهِ إشارَةً عارِضَةً بِاعتِبارِهِ "إماما"، كَما فَعَلَ ابنُ أَبي زَرعٍ قَبلَه. يَقول:

---

[1] . اَلرَّوضُ العَطِرُ الأَنفاس: 49.

[2] . رِياضُ الوَرد: 2/16-18.

"وَهُوَ ابنُ إدريسَ الإمامِ الأَصغَرِ * وَلَدِ إدريسَ الإمامِ الأَكبَرِ" [1] وَهُوَ نَفسُ الموقِفِ الَّذي عَبَّرَ عَنهُ في الدُّرِّ السّنِيّ، إذِ استَعرضَ أُصولَ أَدارِسَةِ فاس، قائِلا:

"اَلإمامُ إدريسُ بنُ عَبدِ اللّه، اَلمبايَعُ لَهُ في غُرَّةِ رَبيعٍ الأَوَّل، سَنَةَ اثنَينِ وَسَبعينَ وَمِئَة." [2]

5 . أَبوالعَبّاس، أَحمَدُ بنُ عَبدِ الحَيِّ الحَلَبِيّ، (–1120هـ) نَزيلُ فاس، وَتَقطيبُ المَولى إدريس، وَتَسويدُهُ عَلى أَولِياءِ المَغرِب

كانَ مَفهومُ وِلايَةِ المولى إدريس، قَد صارَ ضَرورِيًّا أَوكَالضَّرورِيّ، عِندَ أَهلِ فاس، عامَّتِهم وَخاصَّتِهِم، عَلى تَفاوُتٍ بَينَهُم، في ءاخِرِ القرنِ الحادي عَشَر، وَبِدايَةِ الثّاني عَشَر. لاكِنَّ تَطَوُّرَهُ لَم يَكُن قَد وَصَلَ إلى القَولِ بِقُطبانِيَّةِ الإمامِ الوَلِيِّ الصّالِح، جَدِّ الشُّرَفاء، اَلمولى إدريس. وَقَدِ استَلزَمَ الأَمرُ دَفعَةً خاصَّة، تَكَلَّفَ بِها أَديبٌ مُتَصَوِّفٌ قادِمٌ مِنَ المشرِق، مُحِبٌّ لِآلِ البيت، مَدّاحٌ لَهُم. هُوَ أَبوالعَبّاس، أَحمَدُ بنُ عَبدِ الحَيِّ الحَلَبِيّ، (–1120هـ) نَزيلُ فاس.

وَيُمكِنُنا أَن نَقول، إنَّ كِتابَه، "الدُّرَّ النَّفيس، وَالنّورَ الأَنيس، في مَناقِبِ الإمامِ إدريسَ بنِ إدريس"، أَوَّلُ كِتابٍ كُتِبَ في العَصرِ الحَديثِ مُخَصَّصًا لِلأَدارِسَة، وَأَوَّلُ كِتابٍ أُفرِدَ لِمَناقِبِ المولى إدريس، وَنَقَلَ المولى إدريس، من"تَرجَمَة"، في كُتُبِ التَّراجِم، أَو "أَخبار"، في كُتُبِ التّاريخ"، إلى "مَناقِب" مُفرَدَةٍ مُطَوَّلَةٍ مُفَصَّلَة؛ يَختَلِطُ فيها الأَدَبُ بِالتّاريخِ وَالتَّصَوُّف، فَجاءَ نَسيجَ وَحدِهِ في كُتُبِ المناقِب.

وَيُمكِنُنا أَن نُسَجِّلَ أَنَّ هاذا الكِتاب، اَلَّذي أَثَّرَ تَأثيرًا بالِغًا في التُّراثِ الفاسِيِّ اللّاحِق، وَلاسِيَما في تُراثِ السُّلَمِيّينَ وَالكَتّانِيّين، قَد وَجَّهَ عِنايَتَهُ إلى أَشياءَ لَم تَكُن مَعهودَةً في الفِكرِ الفاسِيِّ فيما سَبَق.

---

[1] . اَلإشراف، (لِلقادِرِيّ): 4.

[2] . اَلدّ ُرُّ السَّنِيّ: 12.

أ . فَقَد وَجَّهَ عِنايَتَهُ إلى تَدوينِ المدائِحِ الشِّعرِيَّةِ النّادِرَة، مِمّا نُظِمَهُ هُوَ مِن شِعرِهِ هُو، فَضلاً عَن مَدائِحِهِ النَّثرِيَّة.[1]

ب . وَوَجَّهَ عِنايَتَهُ إلى الإمامَةِ الإدريسِيَّةِ السِّياسِيَّة، وَدافَعَ دِفاعًا جَيدًا عَن هاذِهِ الإمامَة، وَمَشروعِيَّتِها وَسُنِّيَّتِها، بِدِفاعِهِ عَنِ المولى إدريسَ بنِ عَبدِ اللَّهِ الكامِل، مُخَصِّصًا لِهاذا الدِّفاع، ضِدًّا عَلى كُلِّ شُبهَةٍ فِقهِيَّةٍ سُنِّيَّةٍ مالِكِيَّة، اَلفَصلَ الخامِسَ عَشَرَ مِن كِتابِه، "في دَليلِ جَوازِ خَلعِ الإمامِ إدريسَ بنِ عَبدِ اللَّه، بَني العَبّاس، وَكَونِهِ ماتَ مَظلومًا شَهيدا".[2] وَهُوَ ما يَتَرَتَّبُ عَنهُ التَّمهيدُ لِمَشروعِيَّةِ ابنِهِ الإمامِ إدريسَ الثّاني.

ت . وَوَجَّهَ عِنايَتَهُ إلى تَدوينِ "كَرامات" المولى إدريسَ الثّاني،[3] بَعدَما أَثبَتَ أَنَّهُ "مِن أَهلِ الخُصوصِيَّةِ العُظمى"، في فَصلٍ خاصّ.[4] كَما وَجَّهَ عِنايَتَهُ إلى تَدوينِ "كَرامات" ضَريحِ المولى إدريس.[5]

ث . وَعَقَدَ فَصلاً خاصًّا "في الحَضِّ عَلى التَّمَسُّكِ بِمَحَبَّةِ الإمامِ إدريسَ بنِ إدريس، وَءابائِهِ أَهلِ البَيت، وَالزَّجرِ عَنِ الجُرأَةِ في حَقِّهِم، وَما يَلزَمُ المجتَرِئَ عَلَيهِم".[6]

ج . ثُمَّ عَقَدَ فَصلاً فَريدًا في تاريخِ التُّراثِ المغرِبِيّ، في "ءاداب" زِيارَةِ المولى إدريس.[7]، كانَ نَموذَجا احتَذاهُ صاحِبُ "سَلوَةِ الأَنفاس".[8]

---

[1] . اَلدُّرُّ النَّفيس: 82. 83. 84.
[2] . اَلدُّرُّ النَّفيس: 139. وَانظُر: نَظمُ الدُّرِّ وَاللآل: 42-43، حَيثُ يَستَعيدُ الشَّيخُ الطّالِبُ ابنُ الحاجّ، هاذِهِ الحُجَجَ الحَلَبِيَّة.
[3] . اَلدُّرُّ النَّفيس: 334.
[4] . اَلدُّرُّ النَّفيس: 250.
[5] . اَلدُّرُّ النَّفيس: 327.
[6] . اَلدُّرُّ النَّفيس: 296.
[7] . اَلدُّرُّ النَّفيس: 312.
[8] . سَلوَةُ الأَنفاس: 32/1.

وَانتَهى القَولُ بِالخُصوصِيَّةِ العُظمى لِلمَولى إدريسَ الثّاني، إلى القَولِ بِقُطبانِيَّتِه، وَسِيادَتِهِ عَلى كُلِّ أَولِياءِ المغرِب، في وَقتٍ قَصير. فَما عَتَمَ أَنِ انتَشَرَت فِكرَةُ "ديوانِ الأَولِياء"، وَانعِقادِهِ بِفاس، اِبتِداءً مِنَ النِّصفِ الأَوَّلِ مِنَ القَرنِ الثّاني عَشَر. فَهاذا ابنُ زَكري الفاسِيّ، (1144هـ.)، يَقولُ في "شَرحِ هَمزِيَّتِه": "إنَّ اجتِماعَ الأَولِياءِ عَلى الأَمرِ المهِمِّ يَكونُ في فاس، كَما شَهِدَت بِذالِكَ كُشوفاتُ أَربابِ الأَذواقِ وَمَرائيهِم. وَذالِكَ تَأَدُّبًا مَعَ سَيِّدِنا وَمَولانا إدريس، إذ هُوَ إمامُهُم، وَالسَّبَبُ في وُصولِهِم إلى الإيمانِ فَما بَعدَهُ مِنَ الخُصوصِيّات، وَهُم في صَحيفَتِهِ وَميزانِه.

وَليَحذَرِ القابِلُ لِلنَّصيحَةِ كُلَّ الحَذَر، أَن يَرتابَ في خُصوصِيَّتِه، وَيَشُكَّ في وِلايَتِه، فَيَنفِيَ بِذالِكَ الحَقَّ عَن أَهلِه، وَيُكَذِّبَ ذَوي الصِّدقِ المعتَقِدينَ الَّذينَ أَخبَروا بِذالِك، فَيَستَوجِبَ المقتَ وَالطَّرد." [1]

إنَّ هاذا التَّطَوُّرَ السَّريعَ لِمَفهومِ وِلايَةِ المولى إدريس، مِن الوِلايَةِ وَالصَّلاح، إلى الخُصوصِيَّةِ العُظمى، وَالقُطبانِيَّةِ المغرِبِيَّة، بِالإضافَةِ إلى عَوامِلَ تاريخِيَّةٍ كَثيرَة، لا سَبيلَ إلى استِعراضِها، جَعَلَ المخزَنَ العَلَوِيَّ الشَّريف، يَتَدَخَّلُ بِنَفسِهِ في شُؤونِ الضَّريحِ الإدريسِيّ. فَمُحَمَّدُ بنُ الطَّيِّبِ القادِرِيّ، (1187هـ.) يُسَجِّلُ عَن سَنَةِ 1131هـ: "وَمَن حَوادِثِ السَّنَة، أَمَرَ الخَليفَةُ أَميرُ المؤمِنين، وَظِلُّ اللَّهِ عَلى المسلِمين، اَلسُّلطانُ أَبوالنَّصر، اَلمنصورُ بِاللَّه، مَولانا إسماعيلُ ابنُ السُّلطانِ مَولانا الشَّريفِ السِّجِلماسِيِّ الحَسَنِيّ، بِتَجديدِ المسجِدِ المعروفِ في القَديمِ بِمَسجِدِ الشُّرَفاء، وَهُوَ المدفونُ فيهِ الإمامُ مَولانا إدريسُ ابنُ مَولانا إدريس..."[2]

6 . اَلطّالِبُ ابنُ الحاجُّ (1273هـ.)، وَالمَولى إدريس: مِنَ إمامَةِ "الدّيوانِ"، إلى مَشيَخَةِ "الزّاوِيَة" المَغرِبِيَّة

[1] . نَظمُ الدُّرِّ وَاللَّآل: 47.
[2] . نَشرُ المثاني: 240/3.

تَطَوَّرَ مَفهومُ وِلايَةِ المولى إدريسَ الثّاني، في القَرنِ الثّالِثِ عَشَر، مِنَ القَولِ بِرِئاسَتِهِ الوَلَوِيَّةِ لِـ"ديوانِ" الأَولِياءِ بِفاس، وَانعِقادِ هاذا الدّيوان، بِفاس، تَأَدُّبًا مَعَه، وَاعتِرافًا بِفَضلِهِ عَلَيهِم، اَلدّاخِلِ في مَفهومِ "الخُصوصِيَّةِ العُظمى"، اَلَّذي أَفاضَ فيهِ الحَلَبِيّ، إلى القَولِ بِمَشيَخَتِهِ لِزاوِيَةٍ كَبيرَة، هِيَ مَدينَةُ فاسَ المُقَدَّسَة، اَلحَرَمِ الآمِنِ المحفوظ. ذالِكَ أَنَّ وِلايَتَهُ لَم تَكُن في البَدءِ وِلايَةً صوفِيَّة، بَل كانَت وِلايَةً بَيتِيَّة شَريفَة، وَقُطبانِيَّةً لا تَتَقَيَّدُ بِطَريقَةٍ صوفِيَّةٍ مُعَيَّنَة، وَلا فَضلَ فيها لِزاوِيَة مَعروفَة. فَكانَ لا بُدَّ مِن إدراجِ المولى إدريس، بِصِفَتِهِ وَلِيًّا، في طَريقَةٍ مِنَ الطُّرُقِ الصّوفِيَّة، أَي في زاوِيَة، وَلا سِيَما أَنَّ العَصرَ كانَ عَصرَ الزَّوايا، لِيَكونَ وُجودُهُ مُنسَجِمًا في الحُضورِ الصّوفِيِّ العامّ. لاكِنَّ تَعَذُّرَ هاذا الإدراج، بِسَبَبِ تَأَخُّرِ القَولِ بِوِلايتِه، وَضَبطِ المؤَرِّخينَ لِسَلاسِلِ الأَسانيدِ الصّوفِيَّةِ وَالمشيَخات، جَعَلَ فِكرَ القَرنِ الثّالِثِ عَشَر، لا يُدرِجُهُ في سِلسِلَةٍ صوفِيَّة، وَلا يَنسِبُ لَهُ شَيخاً وَلا زاوِيَةً ظاهِرَةً تَكَوَّنَ فيها، وَلا أَسَّسَها، كَشَأنِ الزَّوايا الشّاذِلِيَّةِ وَالقادِرِيَّةِ الَّتي مَلَأَتِ المغرِبَ إذاك. بَل قَلَبَ المعادَلَة، فَجَعَلَ المدينَةَ التّاريخِيَّةَ الَّتي أَسَّسَ المولى إدريس، وَأَبَّدَت شُهرَتَه، هِيَ زاوِيَتَه، في التَّصَوُّرِ الباطِنِيّ، أَي هِيَ بِتَعبيرٍ ءاخَر، "زاوِيَةُ الزَّوايا"، حَيثُ يَنعَقِدُ "ديوانُ الأَولِياء".

قالَ الشَّيخُ الطّالِبُ ابنُ الحاجّ، (1273هـ): "وَبَنى مَدينَةَ فاس، اَلمعروفَةَ عِندَ الأَولِياءِ بِالزّاوِيَة، سَنَةَ اثنَتَينِ وَتِسعينَ وَمِئَة. وَبِها تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَلاثَ عَشرَةَ وَمِئَتَين، وَهُوَ ابنُ سِتٍّ وَثَلاثينَ سَنَة.

وَدُفِنَ بِمَسجِدِهِ بِإِزّاءِ الحائِطِ الشَّرقِيِّ مِنه، عَلى ما لَهَجَت بِهِ الأَلسِنَة، وَاتَّفَقَ عَلَيهِ المؤَرِّخون، وَأَجمَعَ عَلَيهِ أَهلُ الكَشف.

وَلِلَّهِ دَرُّ القائِل:

1. إدريسُ نامَ بِفاسَ كَالعَروسِ، لَهُ * قَلبٌ، إذا نامَتِ العَينانِ، لَم يَنَمِ

2. أَحَلَّ بَلدَتَهُ، في حِرزِ حُرمَتِهِ * "كَاللَّيثِ حَلَّ مَعَ الأَشبالِ في أَجَمِ"

وَلَم يَكُن قَبرُهُ مَعروفًا عَلى التَّعيين، إلى أَنِ اختُبِرَ أَساسُ حائِطِ القِبلَةِ مِن مَسجِدِهِ لِيُصلَح، فَعُثِرَ عَلى القَبرِ وَجَسَدِهِ الشَّريف، باقِيًا بِحالِه. وَذالِكَ في أَواسِطِ المِئَةِ التّاسِعَة.

وَأَجمَعَ أَهلُ العِلمِ وَالكَشفِ عَلى أَنَّهُ مِن أَهلِ الخُصوصِيَّة، كَوالِدِه.

وَانظُرِ "الدُّرَّ النَّفيس"، فَقَد وَصَفَهُ بِالقُطبانِيَّة.

وَتَرجَمَتُهُما، رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما، مَبسوطَةٌ فيه، وَفي "شَرحِ هَمزِيَّةِ ابنِ زَكري"، وَ"عُقودِ الفاتِحَة"، لِلوالِد، نَظمًا وَنَثرا."" [1]

وَلا شَكَّ في أَنَّ الشَّيخَ ابنَ الحاجّ، قَد سارَ في هاذا التَّوَجُّهِ عَلى دَربِ الحَلَبِيّ، وَهُوَ أَحَدُ مَصادِرِه، وَلا شَكّ، ثُمَّ ابنِ زَكري، في شَرحِ الهَمزِيَّة، وَوالِدِه، أَبي الفَيض، حَمدون، في "شَرحِ عُقودِ الفاتِحَة". إنَّ المولى إدريس، قَد بَنى لِلمَغرِبِ مَدينَة هِيَ في الظّاهِرِ كُرسِيُّ مَملَكَتِه، وَحاضِرَتُهُ المُقَدَّسَةُ المبارَكَة، وَفي الباطِن، هِيَ "زاوِيَتُه".

كانَ تَأسيسُ هاذِهِ الزّاوِيَةِ الباطِنَة، سَبَبًا لِهِدايَةِ أَهلِ المغرِبِ كُلِّهِ عَلى يَدَيِ المولى إدريس، كَما تَكونُ الزَّوايا سَبَبًا لِهِدايَةِ المريدينَ وَنَجاحِهِمُ الرّوحِيّ، أَو وُصولِهِم إلى "السَّعادَةِ الأَبَدِيَّة". وَكانَ المولى إدريس، بِمَثابَةِ الشَّيخِ المرَبّي السّالِك، اَلَّذي يُسَلِّكُ المريدين، بِالإِصطِلاحِ الصّوفِيّ، كَما عِندَ الشَّيخِ الطّالِبِ ابنِ الحاجّ. يَقولُ الشَّيخُ ابنُ الحاجّ:

"وَقَدِ اجتَمَعَ أَهلُ العِلمِ وَالكَشف، عَلى أَنَّهُ مِن أَهلِ الخُصوصِيَّة. وَأَوضَحُ دَليلٍ عَلى ذالِك، اِهتِداءُ مَن لا يُحصى عَدًّا مِنَ الخَلائِقِ بِسَبَبِه، وَوُصولُهُم إلى السَّعادَةِ الأَبَدِيَّةِ عَلى يَدَيه، وَتَأَثُّرُ بَواطِنِهِم بِأَقوالِهِ وَأَفعالِه. كُلُّ ذالِكَ في مُدَّةٍ يَسيرَة، وَزَمَنٍ قَليل، مَعَ خِلافِهِم، وَتَبايُنِ طِباعِهِم.

[1]. الإشراف: 1/103-104.

05 . جَذوَةُ الاِقتِباس، في ذِكرِ مَن حَلَّ مِنَ الأَعلامِ مَدينَةَ فاس، لِابنِ القاضي المِكناسِيّ. (.1025هـ). دارُ المنصورِ لِلطِّباعَةِ وَالنَّشر. اَلرِّباط. 1973-1974م. جُزءان.

00 . جَنى زَهرَةِ الآس، في بِناءِ مَدينَةِ فاس، لِأَبي الحَسَنِ الجزِنّائِيِّ الفاسِيّ. (كانَ حَيًّا عامَ 766هـ) تَحقيقُ عَبدِ الوَهّابِ ابنِ مَنصور. اَلمَطبَعَةُ المَلَكِيَّة. اَلرِّباط. 1387هـ . 1967م.

06 . اَلدُّرُّ السَّنِيّ، في بَعضِ مَن بِفاسَ مِن أَهلِ النَّسَبِ الحَسَنِيّ، لِأَبي مُحَمَّد، عَبدِ السَّلامِ بنِ الطَّيِّبِ القادِرِيّ. (.1110هـ). اَلمَطبَعَةُ الحَجَرِيَّة. فاس. 1308هـ.

07 . اَلدُّرُّ النَّفيس، وَالنّورُ الأَنيس، في مَناقِبِ الإمامِ إدريسَ بنِ إدريس، لِأَبي العَبّاس، أَحمَدَ بنِ عَبدِ الحَيِّ الحَلَبِيّ. (.1120هـ) اَلمَطبَعَةُ الحَجَرِيَّة. فاس. 1314هـ.

08 . اَلرَّوضُ العَطِرُ الأَنفاس، بِأَخبارِ الصّالِحِينَ مِن أَهلِ فاس، لِأَبي عَبدِ اللّه، مُحَمَّدِ ابنِ عَيشونَ الشَّرّاط. (.1109هـ) تَحقيقُ زَهراءَ النَّظّام. مَنشوراتُ كُلِّيَّةِ الآدابِ وَالعُلومِ الإنسانِيَّة. سِلسِلَةُ رَسائِلَ وَأُطروحات. 35. اَلرِّباط. 1997م.

09. رِياضُ الوَرد، فيما انتَمى إلَيهِ هاذا الجَوهَرُ الفَرد، لِأَبي عَبدِ اللّه، مُحَمَّدٍ الطّالِبِ ابنِ الحاجِّ السُّلَمِيِّ الفاسِيّ. (.1273هـ) تَحقيقُ جَعفَرِ ابنِ الحاجِّ السُّلَمِيّ. ج.1: مَطبَعَةُ الكاتِبِ العَرَبِيّ. دِمَشق. 1413 هـ . 1993م. ج.2: مَنشوراتُ جَمعِيَّةِ تِطّاوُنَ أَسمير. سِلسِلَةُ تُراث.8. تِطوان. 1420هـ .1999م. جُزءان.

10 . سَلوَةُ الأَنفاس، وَمُحادَثَةُ الأَكياس، بِمَن أُقبِرَ مِنَ العُلَماءِ وَالصُّلَحاءِ بِفاس، لِأَبي عَبدِ اللّه، مُحَمَّدِ بنِ جَعفَرٍ الكَتّانِيّ. (.1345هـ) تَحقيقُ عَبدِ اللّهِ الكَتّانِيّ، وَحَمزَةَ بنِ الطَّيِّبِ الكَتّانِيّ، وَمُحَمَّدٍ حَمزَةَ بنِ عَلِيٍّ الكَتّانِيّ. وَضَعَ فَهارِسَه، أَحمَدُ السَّعيدِيّ، وجَعفَرُ ابنُ الحاجِّ السُّلَمِيّ. دارُ الثَّقافَة. اَلدّارُ البَيضاء. 1425 هـ . 2004م. — 1427 هـ 2006م. 4 أَجزاء.

11 . عُمدَةُ الرّاوين، في تاريخِ تِطّاوين، لِأَبي العَبّاس، أَحمَدَ الرّهونِيِّ التِّطوانِيّ. (.1373هـ) تَحقيقُ جَعفَرِ ابنِ الحاجِّ السُّلَمِيّ. مَنشوراتُ جَمعِيَّةِ تِطّاوُنَ أَسمير. سِلسِلَةُ تُراث 6. تِطوان. 1419هـ . 1998م. / 1428هـ ت 2007م. (6 أجزاء، حَتّى الآن)

12 . مِرءاةُ المحاسِن، مِن أَخبارِ الشَّيخِ أَبي المحاسِن، لِأبي حامِد، مُحَمَّدٍ العَرَبِيِّ بنِ يوسُفَ الفاسِيِّ الفِهرِيّ. (1052هـ) تَحقيقُ مُحَمَّدٍ حَمزَةَ بنِ عَلِيٍّ الكَتّانِيّ. مَنشوراتُ رابِطَةِ أَبي المحاسِنِ ابنِ الجَدّ. 3. اَلدّارُ البَيضاء. 1424 هـ . 2003م.

13 . نَشرُ المثاني، لأَهلِ القَرنِ الحادي عَشَرَ وَالثّاني، لِمُحَمَّدِ بنِ الطَّيِّبِ القادِرِيّ. (1187هـ) تَحقيقُ مُحَمَّدٍ حَجّي، وَأَحمَدَ التَّوفيق. مَنشوراتُ الجَمعِيَّةِ المغرِبِيَّةِ لِلتَّأليفِ وَالتَّرجَمَةِ وَالنَّشر. سِلسِلَةُ التَّراجِم. 3. اَلرِّباط. 1397هـ . 1977م / 1407 هـ . 1986م . 4 أَجزاء.

14 . نَظمُ الدُّرِّ وَاللَّآل، في شُرَفاءِ عَقَبَةِ ابنِ صَوّال، لِأبي عَبدِ اللّه، مُحَمَّدٍ الطّالِبِ ابنِ الحاجِّ السُّلَمِيِّ الفاسِيّ. (1273هـ) تَحقيقُ عَلِيِّ بنِ المنتَصَرِ الكَتّانِيّ. مَنشوراتُ جَمعِيَّةِ الشُّرَفاءِ الكَتّانِيّين، لِلتَّعاوُنِ وَالثَّقافَة. 2. اَلدّارُ البَيضاء. 1421هـ . 2000م.

15. نَظمُ السُّلوك، في الأَنبِياءِ وَالخُلَفاءِ وَالملوك، لِعَبدِ العَزيزِ المَلزوزِيّ. (699هـ) تَحقيقُ عَبدِ الوَهّابِ ابنِ مَنصور. اَلمَطبَعَةُ المَلَكِيَّة. اَلرِّباط. 1382هـ . 1963م.

اختص بهذا العلم وبلغ فيه مبلغ الحفظ والضبط والثقة[1]. أي أنه مشروع صوفي علمي منذ البداية روعيت فيه بالضرورة مكانة فاس وحاجة مجتمعها إلى المزيد من استثمار العلوم الدينية، واللغوية، والعناية بالأسانيد العالية، والمرويات، والإجازات التي كانت من أسباب إقبال الطلبة من أهل المدينة أو من الوافدين على الزاوية كغيرها من المسائل العلمية.

وإذا كنا نخص فاسا بالحديث فإننا نعيد طرح السؤال حول أسباب هذا الاختيار، والانتقال الذي يتضح أنه تم بعد مراحل من التفكير والاقتناع، وأول ما يظهر من بوادر الاقتناع هوالتعرض لجانب أهل فاس الذين انتصروا لجانب الشيخ أبي المحاسن وأيدوه عندما بلغت نقمة قسم من فقهاء القصر الكبير حد طلب الاحتكام إلى علماء فاس بسبب تشنيعهم عليه خدمته لشيخه عبد الرحمان المجذوب[2] وقبول ما اعتبروه بدعا وتضليلا. ولا شك أن طلب الاحتكام وخبر المراسلات قد بلغ إلى مسامع السلطان السعدي عبد الله الغالب لأن الجهات الرسمية أرجأت النظر في الأمر ثلاثة أيام قبل أن يسمح بعقد الاجتماع في مسجد القرويين برئاسة الشيخ محمد بن جلال التلمساني عميد علماء فاس في وقته والذي افتتح بما يدل على وجود موقف رسمي بقوله: "إنما أخرناكم هذه الأيام الثلاثة لنبحث عن هذا الرجل... ونستقرئ الشهادات فيه فأجمع الناس على علمه وعدالته"[3]. إذا كان تاريخ هذا الاحتكام هوعام 974هـ/66-1567 قبل وفاة الشيخ المجذوب بسنتين[4]، فإن مقارنة

---

[1]- توفي الشيخ أحمد بن يوسف الفاسي عام 1021 هـ/1621م أما تكوينه فقد أدرك فيه جلة من علماء عصره من بينهم الشيخ محمد بن يوسف ابن مهدي الزياتي، وأحمد المنجور، ويحيى السراج، وعبد الواحد الحميدي والشيخ أبو بكر الدلائي، وقد لازم الشيخ محمد القصار وحظي بإجازته أما الكتاب المذكور فهو عمدة الأحكام للشيخ عبد الغني بن عبد الواحد مقدسي الحنبلي ت 600 هـ.

[2]- توفي الشيخ المجذوب عام 976هـ/1596م وقد تعرضنا لنهجه الملامتي وسنده وطريقته ورباعياته إلى جانب وجوه التوافق بينه وبين الشيخ أبي المحاسن، ص 80 وما بعدها.

[3]- لقد أيد أهل فاس الشيخ بشكل صريح أثناء هذا الاجتماع، أما العالم ابن جلال الذي استمع إلى الفريق المدعي والمدعى عليه فقد ختم كلامه بالقول "انصرفوا واغتنموا السلامة" ص 92-93.

[4]- قامت طريقة الشيخ المجذوب على البساطة والسياحة والاستنكار، ثم تحولت مع أبي المحاسن إلى طريقة الاستقرار وتنظيم الصحبة ونشر العلم وهو الشكل التربوي الذي ينسجم لا محالة مع طبيعة أهل فاس ومستويات أهلها فكريا. انظر سند الشيخين المجذوب وأبي المحاسن ص 75-77.

بسيطة تجعلنا نحس بإمكانية دراسة مشروع الانتقال الذي تم بعد أكثر من عقد من الزمن. وهي المدة التي شارك خلالها الشيخ أبوالمحاسن في معركة وادي المخازن 986هـ/1578م وواصل نشاطه التعليمي في القصر الكبير. أي أننا أمام بروز ما يؤكد التشجيع المحلي في إطار الظرفية الفكرية العامة التي أعقبت انتقال العاصمة إلى مراكش والعمل على استقطاب العلماء للمحافظة على التألق الثقافي واستمرار الارتقاء بالعلوم الإسلامية ونشرها في العاصمة العلمية، كما يتضح من إلحاح العلماء على أبي المحاسن قصد الانتقال إلى فاس ضمن الأسماء العديدة التي استقرت في هذه المرحلة[1].

أما ما تعكسه الوجهة الأخرى لصورة هذا الانتقال فيبقى رهينا برؤية الشيخ المؤسس لكيفية استغلال إمكانياته في هذا المجال أوذاك. ونلاحظ في هذا المجال ما جاء على لسانه فعندما عزم على تأسيس الزاوية في فاس قال: " كنت في القصر في مقام التلوين، ودخلت فاس في مقام التمكين". أما حفيده مؤلف ممتع الأسماع فقد أضاف قائلا: " رأى... أهل الله مجتمعين وهم يقولون هذا الرجل لا يستقيم دينه إلا بالزاوية يعنون فاس، وكان ذلك لكون القصر لا يسعه، ولاتسع عقول أهله علومه ولذلك لما سأله القاضي أبومحمد عبد الواحد الحميدي ما الذي جاء بك من بلادك؟ قال له: كسدت".

لا شك أننا نحتاج إلى استحضار العديد من المؤشرات ومن التأويلات الصوفية والواقعية للوقوف عن كل مرامي الصيغ الواردة لكننا نكتفي بالإشارة إلى مواقف رجال الصلاح وتقبلهم لمشروع أبي المحاسن وعلى رأسهم الشيخ محمد الرامي التواتي[2] كما نشير إلى مظاهر الواقع في هذا الاختيار وهي تتجلى في وجود الروابط القديمة مع أهل فاس وشيوخها

---

[1]- تعرض أستاذنا المرحوم محمد حجي للعناصر الثقافية الجديدة التي قدمت من العدوة، ومن الحدود الشرقية ومن بعض جهات المغرب إلى فاس، وهي التي تكونت منها أجيال قادت الحركة الفكرية عبر القرون اللاحقة. الحركة الفكرية ج2، ص 374.

[2]- أشاع الشيخ محمد الرامي التواتي تنازله لأبي المحاسن عن كل المنافع والمرافق والمريدين والأتباع بالمشافهة والنداء على لسان الشيخ ابراهيم الصياد مبعوث أبي المحاسن وصديقه وكان مقعدا فحمل على ظهر رجل آخر وصار يطوف على الشهود ويردد قولته " اكتبوا أنا ملكنا فاسا لسيدي يوسف وضمنا له كل شيء حتى ملح العجين"، ص 110.

وَمِنَ المعلومِ أَنَّهُ "ما أَفلَحَ مَن أَفلَح، إلاّ بِصُحبَةِ مَن أَفلَح"[1]. فَلَولا استِقامَةُ أَقوالِه، رَضِيَ اللَّهُ عَنه، وَحُسنُ أَخلاقِه، ما سَرى مِنهُ ذالِكَ إلى أَتباعِه.

وَتُوُفِّيَ مَسموما ... وَقَد سُمَّ سَيِّدُ الخَلق، عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام، وَأَبوبَكرٍ وَالحَسَن. وَقُتِلَ الخُلَفاءُ الثَّلاثَةُ وَالحُسَين. كُلُّ ذالِكَ لِرَفعِ دَرَجاتِهِم، وَتَعظيمِ أُجورِهِم."[2]

وَكانَ لا بُدَّ لِهاذا الشَّيخِ القُطبِ الأَعظَم، صاحِبِ الزّاوِيَةِ الباطِنَة، (اَلمخفِيَّةِ)، مِن كَراماتٍ كَبيرَة، تُرافِقُهُ مُنذُ مَولِدِه. يَقول: "مَولانا إدريس، صاحِبُ التّاج، مَلِكُ المغرِب... وَكانَت وِلادَةُ مَولانا إدريس، بَعدَ وَفاةِ أَبيه، بِثَلاثَةِ أَشهُر. وَكانَ مَكتوبًا بَينَ كَتِفَيهِ الشَّريفَينِ الأَطهَرَين: لا لِإلاهَ إلاّ اللَّه. مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّه. ما شاءَ اللَّه. لا قُوَّةَ إلاّ بِاللَّه. اَلأَمرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللَّه. هاذا مِن نَسلِ نَبِيِّ اللَّه، مُحَمَّدٍ رَسولِ اللَّه. قالَهُ المقرِيُّ في "كُنوزِ الأَسرار"." [3]

7 . مُحَمَّدُ بنُ جَعفَرٍ الكَتّانِيّ، (1345هـ): اَلمَولى إدريس، اَلإنسانُ الكامِل، وَصاحِبُ المَدينَةِ المُقَدَّسَةِ الفاضِلَة

تَمَثَّلَت في كِتاباتِ الكَتّانِيّ، عُصارَةُ تَفكيرِ الفاسِيّينَ في المولى إدريس، مُنذُ أَن شَرَعوا في الكِتابَةِ عَن مُؤَسِّسِ مَدينَتِهِم، وَدَولَتِهِمُ الإدريسِيَّة. فَقَد قامَ الكَتّانِيُّ في مَشروعِهِ الكَبير، لِكِتابَةِ التّاريخِ الفاسِيّ، وَتَقديسِ المدينَةِ الفاسِيَّة، وَمُؤَسِّسِها المولى إدريسَ الثّاني، بِجَردِ أَهَمِّ ما كُتِبَ عَنِ الإدريسَيْن، مِن تاريخٍ وَأَساطيرَ وَكَراماتٍ وَأَدَبِيّات، وَاستِثمارِهِ في كِتابَيهِ الشَّهيرَين، "سَلوَةِ الأَنفاس، وَمُحادَثَةُ الأَكياس، بِمَن أُقبِرَ مِنَ العُلَماءِ وَالصُّلَحاءِ بِفاس"، وَ"الأَزهارِ العاطِرَةِ الأَنفاس، بِذِكرِ بَعضِ مَحاسِنِ قُطبِ المغرِبِ وَتاجِ مَدينَة فاس ". وَعَلى غِرارِ أَبي العَبّاس، أَحمَدَ بنِ عَبدِ الحَيِّ الحَلَبِيّ، لَم يَبخَل عَلى جَدِّه، اَلمولى إدريسَ الثّاني، بِكِتابَةٍ أَدَبِيَّةٍ مَسجوعَةٍ جَميلَة؛ تَعمَلُ عَلى تَصويرِ المولى إدريسَ في صورَةِ "الرَّجُلِ الكامِل"، كَما هُوَ مُتَداوَلٌ مَفهومُهُ عِندَ

---

[1] . مِنَ الحِكَمِ الصّوفِيَّة، لِابنِ عَطاءِ اللَّه.
[2] . نَظمُ الدُّرِّ وَاللآل: 42-43.
[3] . نَظمُ الدُّرِّ وَاللآل: 44.

الصّوفيَّة. فَهُوَ: "بَرَكَةُ فاسَ وَالمغرِب، وَأَمانُهُما وَحِرزُهُما، وَواسِطَةُ عِقدِهِما وَفَخرُهُما، سُلطانُ الأَولِياء، وَنُخبَةُ الصُّلَحاءِ وَالكُبَراء، وَالعُظَماءِ وَالأَتقِياء، سَيِّدُ الأَسياد، وَقُطبُ الأَقطابِ الأَمجاد، اَلغَوثُ الجامِع، وَالنّورُ السّاطِعُ اللّامع، اَلمجاهِدُ في سَبيلِ رَبِّ العالَمين، وَالمؤَسِّسُ لِما عَفى وَدَثَرَ مِن مَعالِمِ الدّين، اَلخَليفَةُ الأَصعَدُ الأَكبَر، وَالهُمامُ الأَنزَهُ الأَنوَهُ الأَنوَر، مَنبَعُ الأَسرارِ وَالأَنوارِ وَاللّطائِف، وَعُنصُرُ المجدِ وَالكَمالات وَسائِرِ المعارِف، عَينُ أَعيانِ الخُلَفاءِ وَالعُلَماءِ وَالشُّرَفاء، وَوارِثُ نورِ هَديِهِ الفُضَلاء، مَن تَحَلّى بِحِليَةِ الكَمالِ وَالإِرشادِ وَالهِدايَة، وَاتَّسَمَ بِسِمَةِ الدَّلالَةِ عَلى اللَّهِ تَعالى وَالقَبولِ وَالرِّعايَة، اَلغَزيرُ الوَصفِ الَّذي تَقصُرُ عَن تَعدادِ أَوصافِهِ الطُّروسُ وَالأَقلام، وَتَكِلُّ دونَ أدناها أَلسِنَةُ الأَنام، اَلعَلَوِيُّ الفاطِمِيّ، اَلحَسَنِيُّ الكامِلِيّ، اَلحِجازِيُّ الأَصل، اَلزَّرهونِيُّ المنشَإ وَالفَصل، اَلفاسِيُّ الدّارِ وَالقَرار، وَالوَفاةِ وَالمزار، مانِحُ الزّائِرين، وَسائِرِ القاصِدين،بِأَسرارِهِ الرَّبّانِيَّةِ المحَمَّدِيَّة، وَبِعُقودِ الجُمانِ وَالدُّرِّ النَّفيس، أَبوالقاسِم، وَأبوالعَلاء، سَيِّدُنا وَمَولانا إدريس، اَلمعروفُ بِإدريسَ الأَنوَر، وَبِإدريسَ الأَزهَر، وَبِإدريسَ صاحِبِ التّاج، وَبِإدريسَ المثَنّى، وَبِإدريسَ الفاسِيّ ...

وَهاذا الَّذي ذَكَرناه، مِن أَنَّ اسمَهُ إدريس، هُوَ اسمُهُ في الظّاهِر. وَأَمّا في الباطِن، وَعِندَ أَهلِ اللَّهِ تَعالى، وَأَهلِ الحَضرَة، فَيُقالُ لَهُ فَضل..." [1]

إنَّ صورَةَ الرَّجُلِ الكامِل، قُطبِ الأَقطابِ هاذا، وَإمامِ الأَئِمَّةِ هاذا، تَتَكَرَّرُ في كِتابِهِ "اَلأَزهارِ العاطِرَةِ الأَنفاس، بِذِكرِ بَعضِ مَحاسِنِ قُطبِ المغرِبِ وَتاجِ مَدينَة فاس"، بَل تُلتَمَسُ مِن عُنوانِهِ قَبلَ أَبوابِه. يَقولُ عَنه: "قُطبُ دائِرَةِ أَفلاكِ السِّيادَة، وَيَنبوعُ كُلِّ شَرَفٍ وَفَخارٍ وَمَجادَة، اَلسَّيِّدُ الشَّريف، اَلمرتَفِعُ بِمَزاياهُ العَظيمَةِ عَلى مِنَصَّةِ الإِكبارِ وَالتَّعظيمِ وَالتَّشريف، تاجُ الأَولِياء، وَنُخبَةُ الأَصفِياء، رَئيسُ الكُبَراء، وَسَليلُ السَّلاطينِ وَالأُمَراء، شَريفُ العُلَماء، وَعالِمُ الشُّرَفاء، اَلخَليفَةُ الأَشهَر، وَالهُمامُ الأَنزَهُ الأَنوَهُ الأَكبَر، اَلمحيي مِن ءاثارِ الدّينِ بِهاذِهِ الدِّيارِ

[1]. سَلوَةُ الأَنفاس: 71/1.ع.1.

المغرِبيّةِ ما دَرَسَ وَدَثَّر، وَالمجَدِّدُ مِن مَعالِمِهِ بِها ما خَفِيَ وَغَبَر، مَن تَكِلُّ الأَلسُنُ وَالأَقلامُ عَن تَعدادِ فَضائِلِهِ وَمَآثِرِه، وَتَقصُرُ العُقولُ وَالأَفهامُ عَن إدراكِ بَعضِ مَزاياهُ وَمَفاخِرِه، اَلقُطبُ الجامِع، وَالنّورُ اللّامِع، سَيِّدُ الأَسياد، وَوالِدُ الشُّرَفاءِ العُرَفاءِ الأَمجاد، مُمِدُّ الكُلِّ بِأَسرارِه، وَمُفيضُ سِجالِ الجودِ وَالعَطايا عَلى قُصّادِهِ وَزُوّارِه، اَلعارِفُ الكَبير، وَالعَلَمُ الشَّهير، قُطبُ جَميعِ الأَقطاب، وَيَتيمَةُ جَوهَرِ العِقدِ النَّفيس ..."[1]

إنَّ كُلَّ ما وَصَفَ بِهِ المولى إدريس، هُوَ " بَعضُ مَحاسِنِ قُطبِ المغرِب، وَتاجِ مَدينَة فاس"، لاكُلُّها. ذالِكَ أَنَّ غَيرَ الكامِل، لَيسَ لَهُ أَن يُحيطَ كُنهًا بِ"الكامِل"، وَلَو أَرادَ وَشاءَ وَعَزَم، وَلَو كَتَبَ عَنهُ كِتابًا مُفرَدًا مُتَوَسِّعًا في زَمَنٍ طَويل، وَبِجَهدٍ شاقٍّ تَنوءُ بِهِ العُصبَةُ أولو القُوَّة، وَبِغَيرِ مادَّةٍ تاريخِيَّةٍ كافِيَة.

وَإذ كانَ المولى إدريس، اَلرَّجُلُ التّاريخِيّ، "إمامًا" بِتَعبيرِ ابنِ أَبي زَرعٍ وَالجِزنّائِيِّ وَابنِ القاضي، أَي رَجُلَ دَولَة، بِالمعنى الأَدَقِّ لِلكَلِمَة، فَإنَّ دَولَتَهُ كانَت هِيَ "الدَّولَةَ الكامِلَة"، أَي الدَّولَةَ المِثالِيَّةَ الأُنموذَجِيَّة، "دَولَةَ الشَّريعَة". بَل ذَهَبَ إلى ما هُوَ أَبعَدُ مِن هاذا المفهوم، مَفهومِ دَولَةِ الشَّريعَة، إذ طَرَحَ مَفهومَ دَولَةِ الشَّريعَةِ وَالحَقيقَة، كَما يَفهَمُ الصّوفِيَّةُ مَفهومَ "الحَقيقَة"، وَاجتِماعِهِما في شَخصِ "قُطبِ المغرِبِ وَتاجِ مَدينَةِ فاس"، وَهُوَ أَمرٌ نادِرٌ في الكِتاباتِ التّاريخِيَّةِ الإسلامِيَّة. يَقول: "وَبَعدَ بَيعَتِه، سارَ في النّاسِ بِسيرَةِ سَلَفِهِ الصّالِح، وَهَديِهِمُ الواضِح، فَجَدَّدَ مِن مَعالِمِ الدّينِ ما بَلي، وَأَظهَرَ ما خَفِي، وَأَحضَرَ ما غابَ وَغَبَر، وَأَحيى ما دَرَسَ وَاندَثَر، وَنَشَرَ العَدل، وَأَظهَرَ الحَقَّ وَالكَمالَ وَالفَضل، وَالتَزَمَ الإستِقامَة، وَأَقامَ السُّنَّةَ وَراءَهُ وَأَمامَه، وَنَصَحَ لِلّهِ وَلِرَسولِهِ وَلِلمومِنين، وَشَهَّرَ شَعائِرَ الإسلامِ وَالمسلِمين، وَأَسلَمَ بِدَعوَتِهِ مَن بَقِيَ مِنَ الكُفّار، ... وَنَشَرَ العُلومَ وَأَوضَحَ الشَّريعَةَ وَالحَقيقَة، وَمَهَّدَ طَريقَ الجَمعِ بَينَهُما،

[1]. اَلأَزهارُ العاطِرَةُ الأَنفاس: 4.

حَتّى عُرِفَت أُصولُ الدّينِ وَفُروعُه، وَتَبَيَّنَ كَمالُ الإيمانِ عَلى ما هُوَ عَلَيه، فَثَبَتَ الدّينُ في المغرِبِ وَتَقَرَّر، وَصارَت شَجَرَتُهُ فيهِ أَصلُها ثابِتٌ وَفَرعُها في السَّماء." [1]

وَباجتِماعِ الشَّريعَةِ وَالحَقيقَةِ في شَخصِه، بِاعتِبارِهِ عالِمًا وَلِيًّا قُطبا، وَالإمامَةِ السِّياسِيَّةِ وَالنَّسَبِ الشَّريف، في دَولَتِه، أَحيى المولى إدريسُ الثّاني في أَرضِ المغرِبِ الأَقصى، وَريثِ ءالِ البَيت، "الدَّولَةَ النَّبَوِيَّةَ الأُنموذَجِيَّة"، حَيثُ لَم تَكُنِ الحَقيقَةُ وَالشَّريعَةُ مُنفَصِلَتَين، كَما جَرى بَعدَ عَهدِ الخُلَفاءِ الرّاشِدين.

وَلَم يَخلُ هاذا الخِطابُ التَّمجيدِيُّ التَّقديسِيّ، مِن قَولٍ يُراوِحُ بَينَ التَّصريحِ وَالتَّلميح، بِشُفوفِ المولى إدريسَ الثّاني عَلى جَميعِ الأَئِمَّةِ وَالأَقطاب، بَل عَلى والِدِه، اَلمولى إدريسَ الأَوَّلِ نَفسِه. يَقول: "فَإِنَّهُ، رَضِيَ اللَهُ عَنه، غَزا ما لَم يَصِلهُ والِدُهُ مِنَ البُلدانِ وَالأَقطار، وَجاهَدَ مَن بَقِيَ في المغرِبِ مِن جَميعِ الكُفّار ... ثُمَّ إِنَّهُ حَبَّبَ لِمَن ءامَنَ عَلى يَدِ والِدِهِ إيمانَه، وَزَيَّنَ إسلامَهُ وَإيقانَه، وَعَلَّمَهُ الأَحكام، وَما يَكونُ بِهِ تَمامُ الدّينِ وَالنِّظام. وَمَهَّدَ لِلنّاسِ القَواعِد، وَعَلَّمَهُم ما جَهِلوا مِنَ المصالِحِ وَالفَوائِد، وَنَصَرَ السُّنَن، وَأَخمَدَ نيرانَ البِدَعِ وَالفِتَن، وَأَقامَ الشَّريعَةَ وَالدّين، وَأَوضَحَ السُّبُلَ لِلمُهتَدين، وَحَقَّقَ الحَقيقَة، وَهَدى إلى الطَّريقَة، وَكَشَفَ المعالِم، وَبَيَّنَ المراسِم، إلى غَيرِ ذالِكَ مِمّا تُوُفِّيَ والِدُهُ قَبلَ استِكمالِه، ...

فَكان، رَضِيَ اللَهُ عَنه، بِذالِكَ سَبَبًا في حُصولِ الإيمانِ الكامِلِ لِأَهلِ هاذا الإقليم، وَنَجاتِهِم مِن سَخَطِ اللَّهِ وَعَذابِهِ المقيم ...

قَدِ اجتَمَعَ فيه، رَضِيَ اللَهُ عَنه، ما افتَرَقَ في غَيرِهِ مِنَ الخِلال، مِنَ الشَّرَفِ وَالعِلمِ وَالوِلايَةِ وَالكَمال، وَالشِّيَمِ الحَميدَةِ الباهِرَة، وَالخِلافَةِ الباطِنَةِ وَالظّاهِرَة، وَالعَدلِ وَالبِرِّ وَالتَّقوى، وَالاِستِمساكِ بِحَبلِ الشَّريعَةِ الأَقوى، وَالعَفوِ وَالحِلمِ وَالصَّبرِ وَالقَناعَة، وَالعِفَّةِ وَالجودِ وَالكَرَم

[1]. سَلوَةُ الأَنفاس: 73/1.ع.1.

وَالشَّجاعَة، إلى غَيرِ ذالِكَ مِن مَحاسِنِ الشِّيَمِ وَالأَوصاف، اَلَّتي يَعِزُّ وُجودُها في غَيرِ ءالِ البَيتِ الأَشراف."[1]

وَإذا كانَ ابنُ أَبي زَرعِ الفاسِيّ، أَوَّلَ المؤَرِّخينَ الفاسِيّينَ الَّذينَ وَصَلَنا تُراثُهُم تَدوينًا لِـ"فَضائِلِ"مَدينَةِ فاس، أَيِ امتِيازاتِها المادِّيَّةِ وَالرَّمزِيَّة، اَلتّاريخِيَّةِ وَالأُسطورِيَّة، وَهُوَ ما تابَعَهُ عَلَيه، حَذوَكَ النَّعلَ بِالنَّعل، اَلجِزنّائِيُّ وَابنُ القاضي، فَإنَّ شَيخَ الإسلامِ الكَتّانِيّ، قَد تَوَسَّعَ في القَولِ بِـ"فَضائِل" فاس، اَلمؤَدِّيَةِ إلى القَولِ الضِّمنِيِّ بِـ"أَفضَلِيَّتِها"، فَاستَعرَضَ سَبعًا وَعِشرينَ فَضيلَة،[2] بَعضٌ مِنها مادِّيٌّ أَوتاريخِيّ، وَالآخَرُ مَعنَوِيٌّ أَورَمزِيّ، وَأَكثَرُها ماضَوِيّ، وَبَعضُها مُستَقبَلِيّ. يَقول: "وَقَدِ امتازَت عَلى غَيرِها مِن غالِبِ البُلدانِ، بِبَرَكَتِه، رَضِيَ اللَّهُ عَنه، بِفَضائل:

مِنها حُلولُه، رَضِيَ اللَّهُ عَنه، بِوَسَطِها. وَناهيكَ بِذالِكَ مِن شَرَفٍ وَفَضل، وَبَرَكَةٍ وَفَخر. وَقَد حازَت بِهِ مِنَ الخَيراتِ وَالبَرَكاتِ ما لا حَصرَ لَه.

وَمِنها: كَونُها أَسَّستَها يَدُ الأَشراف، وَبِناؤُها عَلى أَيديهِم. وَلا يُعرَفُ عَلى وَجهِهِ المعمورِ مَدينَةٌ عَظيمَةٌ إسلامِيَّةٌ عامِرَةٌ بِالعِلمِ وَالدّين، وَأَسَّستها يَدُ بِضعَةٍ نَبَوِيَّةٍ طَرِيَّةٍ إلاّ هِي. وَلَن تَعدَمَ بَرَكَةَ ذالِك، بِفَضلِ اللَّهِ تَعالى، ثمَّ بِعَظيمِ جاهِ أَحَبِّ الخَلقِ إلَيه، سَيِّدِنا مُحَمَّد. صَلّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم.

وَمِنها وُجودُ قَبائِلِ الأَشرافِ فيها بِكَثرَة، بِحَيثُ لا يَكادُ يوجَدُ في مَدينَةٍ مِنَ المُدُنِ مِثلُ ما فيهِ مِنهُم. وَناهيكَ بِها مِن فَضيلَةٍ وَمَنقَبَة، لِأَنَّ الأَشرافَ هُم زينَةُ الكَونِ وَشَرَفُهُ وَنُجومُه، وَبِهِم تَأمَنُ البِلادُ وَالعِبادُ مِن عُمومِ البَلايا، وَعَظيمِ المصائِبِ وَالمِحَن.

وَمِنها وُجودُ أَهلِ العِلمِ فيها بِكَثرَة، حَتّى قيل: إنَّهُ يَنبُعُ العِلمُ مِن صُدورِ أَهلِه، كَما يَنبُعُ الماءُ مِن حيطانِها. وَيُقالُ أَيضا: وُلِدَ العِلمُ بِالمدينَة، وَرُبِّيَ بِمَكَّة، وَطُحِنَ بِمِصر، وَغُربِلَ

---

[1] . اَلأَزهارُ العاطِرَةُ الأَنفاس:5.

[2] . سَلوَةُ الأَنفاس: 1/75-81.ع.1.

بِفاس. وَلَيس في المغرِبِ مَدينَةٌ يوجَدُ فيها مِن أَنواعِ العُلوم، وَأَصنافِ العُلَماء، مِثلُ ما يوجَدُ فيها...

وَمِنها أَنَّها مَحَلُّ الأَولِياءِ وَالصُّلَحاءِ وَالمنتَسِبينَ بِكَثرَةٍ أَيضا. وَأولِياؤُها هُمُ الأُسدُ الَّذينَ لا يَقدِرُ أَحَدٌ مِنَ الأَولِياءِ عَلى مُقاوَمَتِهِم، حَتّى اشتُهِرَ أَنَّهُم يَعمَلونَ في غَيرِهِم، وَلا يَقدِرُ غَيرُهُم أَن يَعمَلَ فيهِم، بِبَرَكَةِ هاذا الإمامِ الَّذي انتَسَبوا إلَيه، وَاستَوطَنوا بِجِواره .. "

وَكُلُّ هاذا، يَنقُلُ"كامِلِيَّةَ" المولى إدريس، بِالتَّعدِيَةِ وَالمجاوَرَة، إلى مَدينَتِهِ وَمَدينَةِ المغرِب، مَدينَةِ فاسَ الإدريسِيَّة، فَتَصيرَ بِوُجودِهِ وَبَرَكَتِهِ "المدينَةَ الكامِلَة"، أَوِ المدينَةَ المقَدَّسَة، أَرضِ المغرِبِ الأَقصى. وَباللَّهِ التَّوفيق.[1]

فَهرَسُ المَصادِرِ وَالمَراجِع

01 . اَلأَزهارُ العاطِرَةُ الأَنفاس، بِذِكرِ بَعضِ مَحاسِنِ قُطبِ المغرِبِ وَتاجِ مَدينَة فاس، لِأَبي عَبدِ اللَّه، مُحَمَّدِ بنِ جَعفَرٍ الكَتّانِيّ. (1345هـ) اَلمطبَعَةُ الحَجَرِيّة. فاس. 1306هـ.

00 . اَلأَنيسُ المطرِبُ بِرَوضِ القِرطاس، في أَخبارِ مُلوكِ المغرِبِ وَتاريخِ مَدينَةِ فاس، لِابنِ أَبي زَرعٍ الفاسِيّ. (كانَ حَيًّا عامَ 726هـ) دارُ المنصورِ لِلطِّباعَةِ وَالنَّشر. اَلرِّباط. 1973م.

02 . اَلأُسطورَةُ المغرِبِيَّةُ: دِراسَةٌ نَقدِيَّةٌ في المفهومِ وَالجِنس، جَعفَرِ ابنِ الحاجِّ السُّلَمِيّ. مَنشوراتُ الجَمعِيَّةِ المغرِبِيَّة، لِلدِّراساتِ الأَندَلُسِيَّة. تِطوان. 1423 هـ . 2003م.

03 . اَلإشراف، عَلى نَسَبِ الأَقطابِ الأَربَعَةِ الأَشراف، لِأَبي مُحَمَّد، عَبدِ السَّلامِ بنِ الطَّيِّبِ القادِرِيّ. (.1110هـ) اَلمطبَعَةُ الحَجَرِيَّة. فاس. 1308هـ.

04 . اَلإشراف، عَلى بَعضِ مَن بِفاسَ مِن مَشاهيرِ الأَشراف، لِأَبي عَبدِ اللّه، مُحَمَّدٍ الطّالِبِ ابنِ الحاجِّ السُّلَمِيِّ الفاسِيّ. (.1273هـ) تَحقيقُ جَعفَرِ ابنِ الحاجِّ السُّلَمِيّ. مَنشوراتُ جَمعِيَّةِ تِطّاوُنَ أَسمير. سِلسِلَةُ تُراث. 11. تِطوان. 1424هـ . 1425 هـ . 2004م. جُزءان.

[1] . عَن ظاهِرَةِ تَقديسِ المدينَةِ المغرِبِيَّة، في الفِكرِ الأُسطورِيِّ المغرِبِيّ، أُنظُر: اَلأُسطورَةُ المغرِبِيَّة:دِراسَةٌ نَقدِيَّةٌ في المفهومِ وَالجِنس: 72-73. 193.

مظاهر وتجليات القوة الرمزية في تجربة الزاوية الفاسية

نفيسة الذهبي

لقد أتاح الانكباب على الحركة الصوفية لكل المشتغلين فرصة الوقوف على جانب لا يستهان به من خبايا تراثنا الأدبي والمنقبي، مما أسهم في إضافة أدوات جديدة للبحث في مصادرنا التقليدية، وفتح أمام الباحثين مجالات الاستفهام، والتساؤلات حول تأثير التصوف في سيرورة المجتمع المغربي، وقد كانت لنا عناية خاصة برصد بعض ملامح هذه الحركة، وتتبع ما بدا لنا من خصوصيات من خلال النماذج التي وقفنا عليها؛ نصوصاً، وشيوخاً، ومؤسسات[1].

وقد اخترنا الحديث في إطار موضوع هذه الندوة عن جانب من الاستفهامات التي عنت لنا عبر تتبعنا لتجربة الزاوية الفاسية وأهمها استحضار الجانب الرمزي في تاريخها، وإن كنا نعلم أن ظاهرة التصوف في حد ذاتها تحمل العديد من الرموز. أما أهم سؤال يمكن أن نؤطر به موضوعنا فهو: هل كانت الزاوية الفاسية محافظة على دور الوسطية والحياد بناء على وعي شيوخها بالعلاقة المعقدة بين المؤسسة الصوفية والمخزن[2] ؟ أم أن بروز دور شيوخها

---

[1]- بدأت هذه العناية منذ بداية دراستنا الجامعية بإنجاز بحث حول زاوية الشيخ أبي محمد صالح الماجري دفين أسفي والمتوفى عام 631 هـ/1234م. ثم خصنا في التعريف بالزاوية العياشية من خلال دراسة الجوانب الفكرية والدور الذي قام به أبرز شيوخها وهو أبو سالم العياشي المتوفى عام 1090 هـ/1679م في إطار الدراسات الجامعية العليا. وكان للزاوية الفاسية النصيب الأوفر من البحث والاستقصاء.وقد خصصنا لها موضوع أطروحتنا "الزاوية الفاسية. التطور والأدوار حتى نهاية العهد العلوي الأول، مطبعة النجاح الجديدة الدارالبيضاء 2001. الذي سنقصر إحالات هذا العرض عليه،

[2]- الملاحظ أن تعاقب رجال المخزن في العهدين السعدي والعلوي الأول لم يخل من مواقف ومواجهات مع الصوفية في تجليات متباينة لم يغب فيها عنصر التشدد الذي فرضته بعض الظرفيات السياسية وإن كان الميل العام نحو المرونة والاعتراف بالخدمات الروحية والاجتماعية والفكرية هو الغالب. ولنا في ظاهرة التشدد أمثلة واضحة، كما أننا نجد في باب الاعتراف بحسن المشاركة واستغلال التأثير الإيجابي من مراسلات وظهائر ما يثبت ذلك. غير أن رجال الزاوية الفاسية الذين عاصروا العديد ن التحولات أخذوا بالأسلوب الذي يتناسب مع كل مرحلة، وهو ما نحاول رصده.

جعلهم في صدارة تقديرات المجتمع الفاسي[1] وبالتالي في تقديرات المخزن العلوي ليصل الأمر إلى مستوى التحالف مع العلويين الأوائل؟ وبين السؤالين يمكن البحث عن رموز هذا الحضور الذي جعل شيوخ الزاوية في طليعة شيوخ مدينة العلم والعلماء.

وإذا كانت استنتاجاتنا مستقاة من محاور الدراسة التي أنجزناها حول الزاوية واعتمدنا فيها نهج التطور والاستمرارية فإن عرضنا سينصب على عنصري التشريح والتركيب لتقديم مقاربة بين العناصر المحورية الأساسية التي ساهمت في تشكيل تلك المظاهر، وكيف تجلت لنا آثارها من خلال تاريخ الزاوية وتاريخنا الحديث بشكل عام. وسوف نتناول بالتحليل شخصية ثلاثة شيوخ عبر ثلاثة مظاهر، القاسم المشترك بينها هو الخلق الصوفي، والرسوخ في العلم، واتساع النفوذ الروحي.

مظهر اقتران تأسيس الزاوية بالمشروع العلمي

يرجع تاريخ تأسيس الزاوية إلى سنة 989 هـ/1581م على يد الشيخ أبي المحاسن يوسف بن محمد الفاسي المتوفى 1013هـ/1604م[2] بحي المخفية من عدوة فاس الأندلس في حجمها ومقرها الأول، ثم توج هذا المشروع الصوفي ببناء المسجد سنة 1004هـ/1596م وتعيين كرسي لتدريس كتاب العمدة في الحديث الشريف برئاسة ابنه أبي العباس أحمد الذي

---

[1]- لا يمكن تجاهل هذه التقديرات فقد عرف المجتمع الفاسي أشكالا من الصراع والتراتبية، استنادا على عدد من العناصر الأساسية والمقاييس ومنها مقاييس النسب، والثروة، والعلم... وقد أولينا هذا الجانب عناية خاصة قبل التطرق لدراسة موضوع الزاوية الفاسية ونشرنا موضوعا تحت عنوان "المجتمع الفاسي خلال العهد السعدي. التراتبية والصراع. انظر "التشكيلة الاجتماعية في تاريخ المغرب" ندوة الجمعية المغربية للبحث التاريخي منشورات مجلة أمل ع 18، ص 60-73.

[2]- ينتسب الشيخ أبو المحاسن لأسرة بني الجد التي هاجرت من الأندلس. وأول من وصل منهم إلى فاس الأخوان عبد الرحمان وأحمد اللذين سكنا عدوة القرويين وبعد وفاتهما سنة 887هـ/82-1483م، بقي على رأس الأسرة يوسف بن عبد الرحمان الملقب بأبي الحجاج والذي عمل في التجارة وتردد طويلا بين فاس والقصر الكبير وفيه حمل لقب الفاسي وأقام بشكل دائم.

الذين أخذ عنهم علوم اللغة والتفسير والفقه والأصول وغيرها في وقت سابق وقد تأكدت العلاقة في المواقف المشار إليها كما تعززت بوجود لفيف أندلسي من الأصحاب[1] إلى جانب الدور العلمي الذي يظهر في عدة إشارات نذكر منها الخطاب الرسمي ونمثل له بقراءة فتوى الشيخ عبد الواحد الحميدي عندما رجع أبوالمحاسن إلى القصر لزيارة أهله وطالبوه بالرجوع إليهم فعجل أهل فاس بإرسال طائفة منهم وكتاب خلص فيه القاضي المذكور إلى القول: "... فهذا أمر لا يجمل بكم، ولا نرتضيه أن يسمع عنكم لأنه الآن قاطن بين أظهرنا، ومن جملتنا ومتصد لتعليم العلم. وقد دعت الحاجة في هذه الحضرة التي هي أم القرى ومنبع العلم"[2].

مظهر اتساع النفوذ الروحي في خضم الظرفية الحرجة

نخص بالحديث مشيخة عبد الرحمان بن محمد ت 1036هـ/1626م[3] الذي كان من رواسخ العلماء حتى استحق لقب "العارف" كما كان معززا بقاعدة شعبية جعلته يحقق الائتلاف وسط النسيج المجتمعي في فاس الذي عانى من تقلبات عديدة بين العهدين السعدي المتأخر والعلوي الأول.

---

[1]- نذكر من بينهم أحمد حبيب الأندلسي الرندي، والفقيه أبو عبد الله محمد بن عزيز التحيبي الأندلسي، والفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد ابن رضوان البخاري وغيرهم.

[2]- ن. الذهبي الزاوية الفاسية، ص 113.

[3]- نال الشيخ عبد الرحمان النصيب الأوفر من التربية الصوفية على يد أخيه أبي المحاسن يوسف، لكنه تميز بالإقبال على العلم أولا حيث أصبح موسوما بالإمام الجامع لأدوات الاجتهاد والتحقيق، ويظهر أن الشيخ عبد الرحمان اقتنع بأنه صاحب الوراثة ورئاسة الزاوية اعتبارا لطبيعة الوراثة الصوفية حيث يكون التعيين، واعتبارا للتأويل المتشعب الدلالة الذي قال به إذ قد لا تظهر صفات الاضطلاع بالوراثة مباشرة بل بعد شهور أو سنوات يقع خلالها الاعتراف بالتأهل النظري، والالتفاف حول الشيخ الوارث وأبرز مثال على تشبثه بهذا التأويل هو موقفه من أبي بكر بن عبد الرحمان المجذوب عندما بدأ يدعو لنفسه ويتعرض للناس ويطلب الصدقات معتبرا أولوية النسب في الولاية، فعندما بلغه ذلك قال لمبعوثه إليه "أخبره أن الذي كان عند أبيه هو عندي أنا الذي ورثته".

وقد استمر الشيخ عبد الرحمان في العمل الصوفي خارج مركز المخفية . وهوالمقر الأول للزاوية والذي حافظ على نشاطه إلى حدود خروج الشيخ أحمد بن أبي المحاسن الفاسي بعد حادث تسليم مدينة العرائش للإسبان[1] . حيث كان يجلس برفقة صديقه محمد بن عبد الله معن بأحد أبواب جامع القرويين كنوع من الإعداد لمرحلة التأهل للمشيخة[2]، وقد توج الإعداد بتشجيع شبكة بشرية هامة، وانتهى بتأسيس المركز الثاني للزاوية بحي القلقليين من عدوة فاس القرويين سنة 1027 هـ\ت/1617م بعدما منحت له الأرض التي بنيت عليها الزاوية، كما منح له أصل مائها. ومن هنا يمكن ملاحظة الحضور وسط المجتمع الفاسي إلى جانب التكيف مع الظرفية التاريخية بحيث نجده يجتهد في تخفيف الطريقة، والعناية بحاجة الناس إلى التكافل، والإطعام، والحرص على استقبال طلبة العلم مما يسمح لنا بالقول بأن الزاوية نجحت في المحافظة على مكانتها الدينية والاجتماعية والفكرية قبل أن نضيف الإشارة إلى رأسمالها الرمزي الذي تعزز كما تشهد الإشارة المصدرية بالقول: لقد "انقادت إليه الرياسة بحضرة فاس فانفرد بها، واحتاج إليه السلطان فمن دونه، ونفذت كلمته، مرجوعا إليه في كل مهم متبوعا في كل ما يقصد إلى أن توفي"[3].

ومسألة الانقياد واضحة من أحداث هذه المرحلة فقد قامت بين اللمطيين والأندلسيين نزاعات عديدة في فترة اختيار الرؤساء المحليين، ولعل من تداعيات هذه النزاعات ووجود الشيخ عبد الرحمان في قلب القرارات المتخذة ظهور عدد من المعارضين، وقد بدت المعارضة

---

[1]- بعد تسليم محمد الشيخ المامون السعدي مدينة العرائش للإسبان سنة 1019هـ/1610م وطالب العلماء باستصدار فتاوى التأييد فخرج عدد منهم فرارا بدينه، وكان الشيخ أبو العباس أحمد قد استمر في رعاية شؤون زاوية المخفية، وإن كنا لا نجد إشارة تفيد استمرار نشاط هذا المركز ما عدا الإشارة الخاصة بجلوس الشيخ محمد بن عبد الله معن بالتربية والاجتماع بالمريدين بها لمدة ستة أشهر قبل أن يبني زاويته بنفس الحي.

[2]- لم ينقطع الشيخ عبد الرحمان عن إقامة الوظائف الصباحية والمسائية بالمسجد المجاور لداره الكائنة بعدوة القرويين، وقد أرخ أبناء الأسرة بداية هذا النشاط بسنة 1015هـ وإن كنا لا نتبين سبب هذا الانتقال من زاوية المخفية إلى المسجد فإننا لا نشك في ارتباطه برؤية الشيخ لمسألة الوراثة والعمل على نهج الاستمرار في تلقين الطريقة بالشكل المناسب للمرحلة الانتقالية التي عاشها.

[3]- صدرت هذه الشهادة عن أحد علماء الأسرة الفاسية المعروفين بصلابة الرأي وهو عمه الشيخ محمد العربي الفاسي، وهي شهادة حاملة لعدة مؤشرات تداولتها المصادر بعد ذلك.

في قضايا كلامية دينية وصلت حد الوشاية أحيانا[1]، كما برزت في الأمور المتعلقة بالسياسة وفيها بلغ الأمر حد التهديد بهدم الزاوية والانتقام[2].

الواضح أننا أمام أمثلة تشهد بعمق الواقع وتأثير الأحداث لكن الزاوية لم تتأثر بكل تلك التداعيات بل إنها أدركت في أيامه عمقا اجتماعيا حقيقيا جعلها تخرج من هذا المخاض العسير "آمنة" كما وصفها شيخها بل إنه جعلها حرما ومكانا للحماية لمن لاذ بها. وكل المؤشرات تدل على حسن قيامه بالدور العلمي والعمل على توجيه النهج الصوفي الوجهة الملائمة للمرحلة، أما أدواره الاجتماعية فشكلت أهم المكتسبات الفعلية عندما بلغ تأثيره حد التقديم والتعظيم من قبل أهل فاس الذين كانوا يقصدونه في الإفتاء والوساطة والاستشارة وما إلى ذلك من العلاقات والمصالح.

مظهر الارتقاء بالاتجاه العلمي وتطور العلاقات المخزنية[3]

نمثل له بشخصية عبد القادر بن علي الفاسي ت 1091هـ/1680م الرَّحلة ورجل الاستشارة[4]. فقد لمعت شخصيته في فاس التي قصدها بغاية استكمال التعليم سنة

---

[1]- كان سبب الوشاية مرتبطا بسلوك صوفي له تأويلاته المعقدة، وقد تقدم القاضي أبو الحسن علي بن عمران السلاسي ت 1018هـ/1609م بشكوى إلى السلطان السعدي زيدان عندما زار فاس بخصوص بعض الأقوال الصوفية وعندما قدم الشيخ عبد الرحمان استقبل أحسن استقبال من قبل السلطان الذي صافحه وسمعه. وإن كانت النتيجة لصالحه فإن المصير القاسي الذي تعرض له الشيخ ابن عمران قد تكون له مسببات أخرى لأن حجم المأساة يفوق المناقشة الكلامية ومجرد المجافاة بين الرجلين، انظر ص 188-191.

[2]- إنقاد أهل فاس لاقتراحات الشيخ عبد الرحمان، وتبينت دواعي الصراع بل إن محمد بن سليمان اللمطي الأقرع أحد زعماء إحدى الثورات هدد بالانتقام من الشيخ عبد الرحمان وحلف ليهدمن زاويته كمحاولة للثأر لوالده.

[3]- أقر الشيخ عبد القادر باتباع هذا النهج العلمي بشكل صريح عندما سمع يوما "رجلا يقول: ما كنا نفعل هذا مع سيدي عبد الرحمان فقال له: هذا شغل آخر أو شيء آخر لا يعرفه سيدي عبد الرحمان ولا سيدك يوسف"، ثم عقب عند ذكر علاقته بالشيخ عبد الرحمان بقوله: " أنا وارث علمه الصحيح". ونضيف الإشارة التأكيدية عندما كان الشيخ يحتضر وتلقى آخر عرض بطلب الصحبة من بعض الأشراف بقوله: " تشهدون لنا بأننا ما ادعينا دعوى وإنما كنا نتعاطى حروف العلم مع أصحابنا".

[4]- ولد الشيخ عبد القادر بالقصر الكبير سنة 1007هـ/1599م وقد أخذ عن مجموعة من خيرة علماء فاس بعد أن انتقل إليها بقصد التعلم ومن جملتهم عمه محمد العربي، وأبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، وعبد الواحد بن عاشر، وأبي الحسن ابن الزبير السجلماسي، وأحمد المقري، وأبي عبد الله الجنان، وغيرهم.

1025هـ/1616م لكنه لم يبرحها منذ ذلك التاريخ أبدا وقد حظي بتكوين علمي متين على يد أبرز شيوخ المدينة، أما في الطريق الصوفي فقد لازم عم والده الشيخ عبد الرحمان العارف ورغب في الدخول ضمن جماعته مبديا ميوله الصوفية، وانجذابه الروحي، وكان الطالب الوحيد من بين رفقائه الذي قبل الشرط الذي اشترطه عليهم كنوع من امتحان الإرادة وبذلك انتسب إليه ولازمه إلى وفاته ثم انتقل إلى صحبة وخدمة الشيخ مَحمد بن عبد الله معن إلى جانب التبرك بعدد آخر من المشايخ.

وإذا لم يكن ممكنا الإلمام بمظاهر كفاءة الشيخ والصفات التي تميز بها خلقا وعلما وتقديرا[1] فإننا نكتفي بالإشارة إلى ظاهرة الاعتدال في سلوكه وإلى حرصه على تلقين الأوراد والأذكار على سبيل التبرك مما جعل طريقته قائمة على العلم، ومشاركته متمثلة في العناية الفائقة بتدريس علم الحديث، وانتساخ كتبه الشيء الذي جعلنا نلاحظ الإلحاح الكبير من مترجميه على اعتبار مدرسة الزاوية من مدارس إحياء هذا العلم ونشره[2] وإذا توقفنا عند هذا العلم فإننا نرصد ما يلي:

. كان الشيخ عبد القادر صاحب رواية عالية كما كان محققا لا يجارى في مستوى التدريس.

. عمّر طويلا حتى غدا شيخ الجماعة وأصبح كل الطلبة والزوار والعلماء يطلبون إجازته ولوعلى سبيل التبرك.

. ظل ملازما لزاويته لا يفارقها ولذلك يوصف بالرُّحلة لعلمه وكفاءته ومستوى دروسه.

---

[1]- يمكن الرجوع إلى الترجمة الخاصة التي عقدها له ولده عبد الرحمان وعنونها بتحفة الأكابر في مناقب الشيخ عبد القادر وقد حقق هذا الكتاب الباحث الويشمي الحسن في جزءين كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس. فاس 2001-2002.

[2]- لم ينقطع الشيخ عبد القادر عن قراءة كتب الحديث وشرحها وتبليغها، وكان ذلك يتم بشكل منتظم في زاويته وقبل ذلك في زاوية شيخه مَحمد بن عبد الله معن حيث كان يداوم على قراءة الصحيحين ويختم البخاري في ليلة القدر وقد داوم على هذا النهج واستحق من الألقاب ما ينم عن مكانته في مجتمع فاس فهو شيخ الجماعة، وشيخ المشايخ، وشيخ الإسلام.

ولعل الدور البارز الذي قام به الشيخ مع بداية حكم العلويين الأوائل يضيف إلى العلاقات المخزنية مع الزاوية صفة التحالف والتقارب، فقد كان له رأي في تأييدهم وكان على رأس المبايعين الذين كتبوا البيعة الرسمية، فبعد أن كان أحمد بن عبد الرحمان الفاسي صاحب مبادرة التحضير والإعداد السابق لدخول المولى الرشيد بعد أن حاصر المدينة عاما كاملا فإن الشيخ عبد القادر مثل المساندة المعنوية للسلطان المولى الرشيد، وقد تكررت هذه المساندة عند إقرار البيعة للمولى اسماعيل فقد كانت الزاوية برئاسته في طليعة المؤيدين. كما أن الشيخ عبد القادر نوه بمزايا الأسرة العلوية وأكد صحة نسبها وشرفها، وقد قسم الأشراف من أهل المغرب حسب قوة وضعف النسب إلى خمسة أقسام في طليعتها "السادات والسجلماسيون" كما أنه دعا إلى طاعة السلطان مشافهة ومكاتبة وله نص مسهب في طاعة الأمير، وفي الواجبات الشرعية التي تدعو إلى تقديم المصلحة العامة على الخاصة[1].

وأهم ما يمكن قوله بخصوص هذا الحضور أن الزاوية الفاسية لم تكن منفردة بالدور العلمي والطرقي، لكنها فاقت باقي الزوايا بسبب الاستمرارية وبسبب الدرجات العلمية التي أدركها شيوخها[2] والتي تجلت من خلال هذا المثال.

أين تتجلى القوة الرمزية في هذه التجربة ؟

يحق لنا القول بأن تحديد هوية الزاوية لابد أن يتم ضمن نظيمة الزوايا الأخرى، فلكل منها رموزه وأدواره لكننا نرصد في هذا المثال المحدد بعض ما يهم الزاوية الفاسية كمركز صوفي . علمي، ومركز له موقع في العلاقات المخزنية، وإن بدت لنا متأرجحة بين المحافظة والحذر

---

[1]- من الزوايا التي تميزت أيضا في بداية الدولة العلوية زاوية الشيخ محمد بن عبد الله معن الذي كان السلطان مولاي اسماعيل يستشيره في أمور الدين والدنيا ويطلب منه النصح والدعاء ويجل كتبه ويقبل هداياه تبركا، وقد ساهم هذا الشيخ أيضا في الدعوة لطاعة السلطان والحديث عن شرف هذه الأسرة السجلماسية.

[2]- ذكر مصنف نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني من بين علماء الزاوية ثلاثين عالما ممن بلغوا درجة الإمامة.

وبين الموالاة على النهج المتستر أوالصريح فإننا نحاول استقصاء بعض ما تجلى من رموز الحضور والتميز.

*يتجلى لنا موقف المرونة كعنصر قوة للزاوية وذلك من خلال مراعاة الجانبين الروحي والعملي عند أتباعها كما يظهر في عدم التشدد مع الفئات المختلفة. فالشيخ المؤسس مثلا لم يكن يرفض أهل الدولة في مجلسه بل اعتبر حضورهم سعيا لتهذيب خلقهم وطباعهم وكان من جملة المواظبين وزير محمد الشيخ المامون وعدد من أكابر الجيش كما أنه كان يقبل الهبات التي تأتي من الملوك والولاة وله في ذلك تعليل فالمال الذي جهل أصله واحتملت فيه الشبهة كان موضوع مساجلات عديدة بين الفقهاء، لكن أبا المحاسن اعتبر أن زاويته تقوم بدور الوساطة بين تحصيل المنافع وإعادة توزيعها على من هم في حاجة إليها.

ولم تغب المرونة في سلوك الشيخ عبد الرحمان الذي تعرض لكثير من المضايقات، كما أنها لم تغب في سلوك الشيخ عبد القادر الذي تحمل إذاية معارضيه وإزعاجهم للطلبة وما تلا ذلك من تعطيل الدروس في الزاوية.

فإذا وضعنا التجاوز عن الأذى، وخدمة الناس وقبول القيام بدور الوساطة المعنوية إلى جانب تهذيب الخلق والقيام بالدور التربوي فإننا نتلمس أحد أهم الرموز المشار إليها.

*المكانة التي بلغتها الأسرة الفاسية في مجتمع فاس بكل تناقضات فئاته فقد أصبح الفاسيون في قمة هرمه الاجتماعي وبتزكية من أهله.

*بلغت الزاوية مرتبة الصدارة ضمن التراتبية الصوفية داخل فاس وحظيت بصفة "الحرم" إذ غدت من مزارات فاس التي "... يحترم بها أهل الجنايات، ومن طلب بالتكاليف المخزنية، وكان المولى اسماعيل يجير من استجار بها ولا يقدر أحد من عماله أن يتجاسر على أحد من لجأ إليها ولو جنى ما جنى" وهو تقدير مخزني لا تغيب أهيمته الرمزية.

*ارتباطا بالجانب التربوي تتجلى الهالة التي أحاطها بها طلبة العلم المتخرجين على يد شيوخها والذين شكلوا النخب التي اضطلعت بالوظائف الشرعية والدينية والاقتصادية وغيرها فهي قوة رمزية فكرية معترف بها.

*أما على المستوى الرسمي فيتجلى لنا تقدير المخزن لشيوخها منذ المراحل الأولى، فالشيخ المؤسس الذي كان متحفظا ورفض ملاقاة السلطان أحمد المنصور الذهبي معتذرا بالهرم كان له تقديره ضمن رجال الصلاح ومن ثم جاء طلب السلطان له بغاية القيام بواجب النصح بعد الخلاف بينه وبين ولده محمد الشيخ المامون. أما السلطان زيدان السعدي فقد لاحظنا احترامه للشيخ عبد القادر والتعبير عن السمعة الطيبة التي بلغته عنه في مجلسه، ويبقى الشيخ عبد القادر الذي "يسر الله على يديه حقن دماء المسلمين بعد معاينة الهلاك منها عند دخول المولى الرشيد إلى فاس" محققا للهالة الأكبر مع السلطان المولى اسماعيل الذي عظم جنابه وقبل ملاحظاته حتى وإن تعلق الأمر بشطط الولاة، كما أنه استقبله في مكناسة سنة 1091هـ/1680م بحفاوة كبيرة وأنزله بداره الجديدة بالقصبة وسرح المساجين إكراما لوفادته، كما أنه أمر بتجديد بناء الزاوية وإنشاء منارتها وتخصيص الأوقاف لتسييرها[1].

*يمكن إضافة إشارة المراسلات المتبادلة بين الشيخ عبد القادر وولده مَحمد وبين السلطان من الرموز الدالة على المرتبة التي بلغتها الزاوية أيام المولى اسماعيل وإن كنا سنلاحظ الضغط الكبير على ولده مَحمد ومحاصرته لحد الإنذار والتهديد في قضية تمليك حراطين فاس فإننا لا نشك في إن المكانة الفقهية والتجارب الطويلة في العلوم الشرعية كانت وراء هذا المسعى، ووراء هذا الإلحاح الذي يعكس مكانة شيوخ الزاوية في نظر السلطان.

---

[1]- استصلحت الزاوية بأمر مخزني بشكل كامل إذ لم يبق من مبانيها القديمة "إلا حائطها المقابل للدار من البناء، وحائط القبلة من البناء الأخير"، فقد كانت أصغر من حجمها اليوم بنحو الربع وكانت الزيادة مرفقة بجلب الماء وتجهيز المرافق...

*ونختم بما تجلى لنا من حجم الامتيازات فقد غدت الزاوية مكانا لاجتماع الأعيان وتزكية البيعات والاجتماع لخروج الوفود من المهنئين أوالمجددين للبيعات كما أصبحت مركزا لمناقشة القرارات الحاسمة في الدولة.

نستخلص من كل هذه الإشارات أن الزاوية الفاسية كان لها نَفَسُ القوة الرمزية، واستطاعت أن تحقق المشروعية الصوفية والجاذبية الشعبية داخل مدينة فاس، كما حققت الصبغة الفكرية العالية، وبذلك مثلت الوسطية والحياد وظلت في قلب المؤثرات الواضحة في تاريخ التصوف وتاريخنا الحديث بشكل عام.

المتصوفة ورجال السلطة بفاس
على عهد العلويين

ذ. أحمد البوزيدي
كلية الآداب . ظهر المهراز . فاس

تقديم

كانت مدينة فاس منذ تأسيس عدوتيها في بداية العقد العاشر من القرن الثاني الهجري/العقد الأول من القرن التاسع الميلادي[1]«تطاول القرون والأجيال، وتصاول الدول والأقيال» على حد وصف أحد العلماء المعاصرين بالمدينة[2]. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنفة وشموخ رجال مدينة فاس، وقد برر صاحب الاستبصار هذا الشموخ باتساع مكاسب أهلها، ورغد عيشهم وكثرة تنعمهم بجمال المدينة[3]. وقد أفاض الكتاب والأدباء منذ العصور الوسطى إلى الوقت الحالي في وصف محاسن مدينة فاس[4]. وبعدما تأسست جامعة القرويين في أواسط القرن الثالث الهجري/القرن التاسع الميلادي[5] كبرت مكانة فاس في نفوس المغاربة، وأصبحت المدينة توصف في بعض الكتابات بأنها دار فقه وعلم وصلاح ودين[6] وكانت المدينة تعتبر قاعدة المغرب بدون منازع، حيث كان حكام وملوك الدول التي تعاقبت على حكم المغرب يتخذونها العاصمة السياسية،[7]حيث أضحى العلماء يتمتعون بوضعية اجتماعية

---

[1] - بنيت عدوة الأندلس سنة 192هـ/807م، وعدوة القرويين سنة 193هـ/808م. ولا نريد الخوض في مناقشة ما ورد منن أقوال حول الموضوع.

[2]- الكتاني (يوسف): جامعة القرويين ودورها في التواصل العلمي بين الشعبين المغربي والمصري. مجلة المناهل، ع39، دجنبر 1990، ص65.

[3]- مجهول،كتائب الاستبصار في عجائب الأمصار. نشر وتعليق:سعد زغلول عبد الحميد ، البيضاء ، 1985، صص181-182.

[4]- تعددت الكتابات التي أشادت بمدينة فاس، انظر ضمن بعض أسماء الكتب التي أفاضت في أحاديثها عن فاس، مقالة العلامة يوسف الكتاني في المنهل المذكور أعلاه.

[5]- تأسست جامعة القرويين باتفاق جل المصادر سنة 245هـ/859م.

[6] - ابن أبي زرع (علي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة اس. الرباط 1973. ص.32.

[7] - نذكر بأن جل الدول التي تعاقبت على حكم المغرب كانت دائما تسعى لأن تكون مدينة فاس عاصمة لها باستثناء دول المرابطين والموحدين والسعدين.

متميزة وأضحى ملوك وحكام بعض الدول يهابون جانب العلماء وأهل الصلاح، ذلك أن صوت أهل العلم والصلاح بالمدينة كان صوتا مسموعا، وهذا ما جعل السلطان محمد الشيخ السعدي، بعدما عجز عن الدخول إلى فاس، يشتكي من العلماء، حيث اتهمهم بأنهم كانوا يقطعون أمعاءه على المنابر ويوقدون نار الفتنة عند الأكابر[1]. وتزخر كتب المناقب بإشارات عديدة حول العلائق المضطربة بين أهل العلم والصلاح بمدينة فاس بمن كان يعاصرهم من الأقيال وولاة الدول التي تعاقبت على حكم المغرب[2]. ولعل أقرب مثال لنا عن موقف بعض العلماء وأهل الصلاح من رجال الدولة، هو موقف الفقيه عبد الواحد الونشريسي والعالم الصالح عبد الوهاب الزقاق بمدينة فاس[3] حيث رفضا مبايعة السلطان محمد الشيخ مما أدى إلى قتلهما[4]. وبالرغم من التخلص من هذين العالمين الصالحين، فإن أباالرواين،[5] وهو رجل صالح معروف بفاس، لم يوافق على دخول السعديين لفاس إلا بعد مفاوضة شاقة.[6]

ولما تصدى الأشراف العلويون للملك بالمغرب، في بداية العقد الخامس من القرن الحادي عشر الهجري/العقد الرابع من القرن17 الميلادي، كان السلطان مولاي محمد بن الشريف، يدرك منذ وقت مبكر من إمارته[7]أنه ما لم تتم له السيطرة على مدينة فاس، فإن الملك الذي ينوي إقامته بالمغرب عرضة للزوال على حد تعبير صاحب الاستقصاء.[8]

---

[1] – مؤرخ مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمادارتية. تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة . مراكش 1994 . ص.28.

[2] – انظر من هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر: دوحة الناشر لابن عسكر، الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين بفاس لابن عيشون، وغيرهما من كتب المناقب التي تؤرخ لحياة أهل الصلاح بفاس وبالمغرب.

[3] – انظر ترجمتهما عند: . ابن عسكر الشفشاوني: دوحة الناشر، تحقيق محمد حجي، الرابط 1977، صص.52-56

[4] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. طبعة الدار البيضاء، 1956، ج5، صص.22-29.

[5] – انظر ترجمته عند: أبا عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر، ص.79-80

[6] – كان أبو الرواين قد طالب أموالا ضخمة من السلطان محمد الشيخ إذا أراد الدخول لمدينة فاس، فسلمت إليه، فأجل دخولهم إلى السنة القادمة، كما ورد ذلك في دوحة الناشر، ص.80.

[7] – تولى مولاي محمد بن الشريف الإمارة بسجلماسة بعد اعتقال والده وترحيله إلى إيليغ سنة 1050هـ/1640م.

[8] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. البيضاء 1956، ج7، ص.16.

ونعتقد أنه من الصعب جدا فهم طبيعة العلائق بين ملوك الدولة العلوية، وأهل الصلاح بمدينة فاس، ما لم نلق نظرة موجزة وسريعة على سلوك أهل الصلاح ورجال التصوف بالمغرب عامة وبمدينة فاس خاصة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م. فكيف حاول السلاطين العلويون التعامل مع الأوضاع العامة التي ورثوها عن السعديين، والتي كانت تتميز بنفوذ واسع وكبير لأهل التصوف؟ وما هي طبيعة العلائق التي كانت تربطهم بأهل الصلاح بفاس ؟

I- صورة حركة المتصوفة خلال النصف الأول من ق.11هـ/17م.

1- أطماع المتصوفة في السلطة

ذهبت هيبة الدولة بالمغرب بعد وفاة السلطان أحمد المنصور السعدي سنة 1012هـ/1603م بمدينة فاس، فانشغل أبناؤه بالصراع على السلطة، فكان من عواقب هذا الوضع المتأزم سياسيا، أن تصدى رجال التصوف وشيوخ القبائل والزوايا لطلب الأمر وممارسة السلطة، وتحول أصحاب الزوايا بالساورة، وإيليغ سوس، ودلاء فازاز من بذل الموائد للضيوف إلى ظهور المطهمة للمقارعة بالرماح والسيوف، وما تورعوا عن التخلي عن السبحة وتعويضها بحزام الرصاص، فبات أزيز المكاحل يعوض حلقات الأذكار، بل إن جل رجال التصوف من أصحاب الزوايا، لم يتورعوا أيضا بطرح الحائك جانبا واستبداله بدرع الميدان[1]. وقد استهوتهم السلطنة بعدما تجلت لهم وهيَّ متوشحة ببيارق المجد في علياء الأجواء المغربية، فاندلقوا مندفعين من قيعان الأودية، كما انحدروا من صياصي الشواهق. وهكذا اندلق أحمد بن أبي محلي من وادي الساورة، تدفعه رياح الشرَكي، ولم يهدأ روعه إلا بعد أن أعرس بأرملة

[1] - ورد عند الناصري في الاستقصاء (ج5، 26) أن السلطان محمد الشيخ أمر بامتحان أرباب الزوايا والمتصدرين للمشيخة خوفا على ملكه منهم لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند إشاراتهم.

أحمد المنصور بقصر البديع[1] ،فاقتحم عليه خلوته شيخ زداغة من تافيلالت الأطلس الكبير[2] وتحداه بمعركة إكليز، فقطع رأسه وذلك في العشر الأوائل من رمضان سنة 1022هـ/أكتوبر 1613م.[3]

وبالرغم من أن شيخ زداغة قد عاد إلى تارودانت، فقد استهوته السلطنة ونصب نفسه سلطانا بسوس إلى أن قضى على ملكه سليل زاوية تازروالت علي بن محمد بن الشيخ أحمد بن موسى الذي عرفه التاريخ بأبي حسون السملالي[4].

أما في جهة الشمال، فقد جاس صاحب الدلاء بقضه وخيله بجبال بني يازغة، واندفعت الصافنات برجاله لتجول بأزقة مدينة فاس، ولم يهدأ روعه إلا بعد ان حط رحاله بشاطئ المحيط.[5] ومتصوفة آخرون ظلوا هنا وهناك يحلمون وينتظرون، أن تتجلى لهم السلطنة في لحظة من لحظات الزمان. إلا أن رياح سجلماسة أيقظتهم من حلمهم وما نالوا من السلطنة وطرا.

2- ميلاد إمارة العلويين بتافيلالت

كانت أسرة الأشراف العلويين تستوطن قصر سجلماسة بواحة بتفيلالت منذ وصول جدهم الأول الحسن بن قاسم سنة 664هـ/1265م.[6] فلما انتثر عقد الدولة السعدية خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م، واستقل أبناء بعض الزوايا ببعض

---

[1] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. البيضاء، 1956، ج6، ص31.

[2] – تقع زاوية زداغة بمنطقة تافيلالت بالأطلس الكبير شمال مدينة تارودانت.

[3] – رمزوا إلى قيام أحمد بن أبي محلي ومقتله بقولهم قام طيشا ومات كبشا أي أنه أعلن الثورة سنة 1019هـ، (طيش)، ومات سنة 1022 (كبش).

[4] – فيما يتعلق بأخبار أبي حسون السملالي انظر:السوسي (محمد المختار): إيليغ قديما وحديثا. هيأه للطبع وعلق عليه المحروم محمد بن عبد الله الروداني. الرباط، 1966. ابتداء من ص45.

[5] – نشير هنا إلى ما قام به محمد الحاج الدلائي بالاستيلاء على منطقة الغرب وسيطرته على شاطئ المحيط بمنطقة سلا ابتداء من سنة 1051هـ/1641م.

[6] – يعرف الحسن بن قاسم بالحسن الداخل، وقد اعتمدنا هذا التاريخ لتحديد تاريخ وصوله إلى المغرب ترجيحا لما ورد عند جل المؤرخين.

جهات المغرب،[1] بدا لأسرة العلويين أن تخوض غمار السياسة بمباركة بعض القبائل الفيلالية مثل دخيسة وذوي منيع والصباح. وقد بويع لشيخ العائلة في وقته مولاي الشريف بن علي بالإمارة سنة 1041هـ/1630م.[2] وعلى عكس الإمارات القائمة في المغرب خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م، فإن إمارة العلويين لم تتكئ على مسند صوفي لتبرير تصديهم للأمر، بل اعتمدوا على ما هو أكبر من ذهنية المغاربة، وهي نسبة الشرف. وقد طعن مولاي محمد بن الشريف في نسب الأسرة السعدية.[3] وبعدما استتب الأمر للأشراف العلويين تراجعوا عن هذا الطعن واعترفوا للسعديين بالنسبة لآل البيت.[4]

كان على القادمين الجدد أن يقرعوا طبل الوحدة من منطلقهم بالهضاب الورد من واحة تافيلالت، ليتردد صداه في قيعان الأودية بدرعة ودادس وسوس، وفي قمم فازاز وشواهق أدرار ندارن، وأن يجددوا للوطن شبابه بعدما أنهكته الحروب الطاحنة في غير ما منطقة من البلاد، وهي مهمة صعبة ولاشك. وأنيط أمر تنفيذها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/17م لثلاثة فرسان من أبناء الشريف بن علي، قد تعشقوا القراع ومنازلة الأبطال.

وهكذا قاد الحزاحز الأمير السلطان مولاي محمد بن الشريف، فصال بأهل الساحل في معارك ضارية يشيب لها الرضيع،[5] فانتزع منهم بلاد درعة انتزاعا وتعلق بجبل كيسان[6]

---

[1] – نذكر بأن جل الذين تصدوا لأمر السلطنة بعد وفاة أحمد المنصور في مطلع ق11هـ/17م، ينحدرون من زوايا معروفة مثل تازروالت، وزداغة بسوس وغيرهما.

[2]– تجنبنا الخوض في الممحكات التي وقعت بين مولاي الشريف بن علي وآل تبوعصامت إلى حين اعتقاله وترحيله إلى سوس، اختصارا للوقت.

[3] – انظر الإشارة للطعن في نسب السعديين من لدن محمد بن الشريف عند : . اليفرني: نزهة الحادي. ط1888. ص.7.

[4]– انظر الإشارات الخاصة بالتراجع عن هذا الطعن في نسب السعديين عند: . اليفرني، م.س، ص8. وعند الناصري في الاستقصاء، ج5، ص.3.

[5]– اليفرني، م.س، ص.301.

[6]– يقع جبل كيسان في وسط واحة مزكيطة، حيث يشرف على الضفة الشرقية لنهر درعة، ويفصل بين بلاد درعة، وبلاد أيت عطا التي تؤدي في نهاية الأمر إلى بلاد مكونة وواد دادس.

ليجول جوله خاطفة بواحات دادس وفركلة، وتجلت له السلطنة زاهية مزهوة بصياصي جبل صاغرو، وخوانق تودغة، وما راعه إلا أخبار صاحب الدلاء. وقد أناخ بكلكل جيوشه على العاصمة الإدريسية، وقد استصرخ أهل فاس وأعراب الغرب[1] مولاي محمد بن الشريف وواعدوه النصرة، فأقبل عليهم وحل بفاس الجديد وتسنم كرسي الملك وذلك في مفتتح شهر رجب عام 1059هـ/1649م.[2] إلا أن أهل الدلاء لم يمهلوه، فأجلوه عن مدينة فاس في نفس السنة. فعاد أدراجه مقتنعا بما حققه من سيطرة على سجلماسة ومناطق الواحات.

ما كاد مولاي محمد بن الشريف يستقر بسجلماسة حتى بُلِغَ بثورة أخيه بالمغرب الشرقي، فتحرك مولاي محمد من سجلماسة، فاجتاز نهر ملوية، واحتل بسيط أنكاد لمعالجة ثورة أخيه الرشيد، فكبا به فرسه في أول مواجهة بين الأميرين وذلك يوم فاتح محرم الحرام عام 1075هـ/يوليوز 1664م.[3] فتلقف الدرع والسيف الأمير مولاي رشيد، الذي بويع له بالملك مباشرة بعد مقتل مولاي محمد بن الشريف.

كان الأمير الجديد مسلحا بطموح وعزم الشباب، فعول على المضي في المشروع التوحيدي، الذي وضعه المؤسس الأول لإمارة الأشراف بتافيلالت.

ويظهر أن مولاي رشيد لم يكن مستعجلا من أمره، اقتنع في أول مرحلة من ملكه باتخاذ مدينة تازة عاصمة له وعينه على مدينة فاس التي كانت إبانئذ تتنازعها الأهواء بين أتباع ابن صالح في عدوة الأندلسيين، وأتباع بن الصغير من اللمطيين بالإضافة إلى ما عليه أمر الدريدي بفاس الجديد.[4]

---

[1] – الكنسوسي (محمد بن أحمد)، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا السجلماسي. تقديم وتحقيق وتعليق: أحمد بن يوسف اكنسوسي. ج.I مراكش. د.ت.، ص.109.

[2] – لم نشأ الدخول في مناقشة المرات المتكررة التي حاول فيها مولاي محمد بن الشريف الدخول إلى مدينة فاس.

[3] – اليفرني (محمد الصغير)، نزهة الحادي، ط.1888. ص.302.

[4] – حول الصراعات التي كانت محتدمة بين الثوار بفاس ودور الدريدي في الحفاظ على الأمن بفاس الجديد، انظر: الكنسوسي (محمد بن أحمد)، الجيش العرمرم الخماسي.. ج.1. ص.112.

II- مواقف رجال التصوف بفاس من ملوك وسلاطين العلويين

1. السلطان مولاي رشيد وعلائقه بصلحاء مدينة فاس

أشرنا بأن مولاي رشيد لما تغلب على أخيه مولاي محمد بن الشريف، نزل بمدينة تازة وعينه على مدينة فاس، التي كان ثوارها من العامة ينظرون بعين الريبة والشك الى السلطان الأمير مولاي رشيد بن الشريف، خاصة أن أهل فاس اجتمعوا مع الحياينة وأهل حوز المدينة على مخالفته وعدم بيعته، وأمر رؤساء المدينة العامة بشراء الخيل والإكثار من ذلك وحلفوا أن لا يدخل مولاي رشيد المدينة.[1]

وإذا كانت كل الإشارات التاريخية التي وردت في جملة المصادر والمراجع التاريخية، لم تشر إطلاقا إلى مشاركة أهل الصلاح وفقهاء وعلماء فاس في التحالفات لصدّ مولاي رشيد من الدخول إلى العاصمة العلمية، فإن هذه الإشارات التاريخية قد أكدت على أن الدريدي (المستقل بفاس الجديد) قد تواطأ مع رئيس الأندلسيين على اعتقال شرفاء وعلماء مدينة فاس عقابا لهم على اللهج باسم مولاي رشيد[2]. ومن بين هؤلاء المعتقلين، الفقيه العلامة حمدون المزوار، والشريف السيد محمد بوعنان. وقد ظل هؤلاء الفقهاء والأشراف في ثقاف الدريدي بمنزله بفاس الجديد إلى أن فك أسرهم مولاي رشيد في مساء نفس اليوم، حيث تمكن من السيطرة على فاس الجديد.[3] وفي ثالث من ذي الحجة عام 1073هـ/يونيه 1666م تمكن من الدخول إلى فاس القديم، فتوطدت علائقه بهيئة العلماء والأشراف وأهل الصلاح حيث عين العلامة حمدون المزوار قاضيا على المدينة.[4] وبعد ثلاث سنوات من الدخول إلى فاس، تحرك السلطان مولاي رشيد ميمما زاوية الدلاء، وببطن الرمان من فزاز، تحول جيش

---

[1] - الكنسوسي (محمد بن أحمد)، م.،س، ص.112.

[2] - الضعيف (الرباطي)، تاريخ الدولة العلوية السعيدة. دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي. الرباط 2007. ج1. ص138.

[3] - ابن ابراهيم (العباس)، الإعلام بمن حمل بمراكش وأغمات من الأعلام. الرباط 1975، ج3، ص.240.

[4] - انظر ترجمة حمدون المزوار عند: القادري (محمد بن الطيب):،نشر المثاني تحقيق محمد حجي ومن معه، الرباط 1982، ج.2، ص.205

أهل الدلاء إلى مطنزة أمام الحشود الرشيدية، إذ لم تعد تجدي أمام زحف الحشود التابعة للرشيد[1] لا رماح بني مجاط، ولا صياقل صنهاجة، ولم يقنع السلطان الرشيد من الدلائي إلا بدك الزاوية وإشعال النار في خُرثييها، فطمست معالمها وصارت حصيدا كأن لم تغن بالأمس على حد تعبير صاحب الاستقصا،[2]وترك العلامة أبا علي الحسن اليوسي، يكلف جفن العين أن ينثر الدُّرَا.[3] وبعدما أزهق روح الشباني بحمراء الجنوب، تجلت السلطنة لمولاي رشيد من جديد بصياصي أدرار ندرن تغريه بإتمام مسيرة الوحدة، وتحقيق حلم والده، بجولة قصيرة في أصقاع زاوية تازروالت، وصال برجال بعقلية من بلاد سوس، وهكذا اجتاز الرشيد بصافناته فجاح وثنايا أدرار ندارن، فنزل برودانة وذاق من بطش جيوش فرسان وراجلة قبائل هشتوكة، ثم عرج على بلاد تازروالت فدكّ مقر إمارة إيليغ، فتمهدت بلاد سوس وذلك بإفشٍ من السنين.[4] عادت السلطنة إلى حمراء الجنوب وهي مزهوة بما حققه مولاي رشيد من انتصارات بصقع سوس، وما راعها إلا المنية. وقد خطفت منها السلطان مولاي رشيد وذلك يوم حادي عشر من ذي الحجة الحرام عام 1082هـ. وقد أظهرت السلطنة نوعا من الجزع على فارسها لما بلغ مسامعها همس السلطان وهو يودع عالم الفناء بقوله «هذا عبدك الرشيد زال ملكه سبحان من لا يزول ملكه»[5]. فانتهزها السلطان وهو يجود بنفسه حيث ذكرها بأن، لكل أجل كتاب وطمأنها بالعهد المأخوذ على فارسها الثالث بمكناسة الزيتون، فكفكفت السلطنة دمعها وكتمت أحزانها وهي تنتظر عقد البيعة لترحل من حمراء الجنوب إلى بلاد سايس.

ويظهر من خلال تتبعنا لأنشطة السلطان مولاي رشيد أن المدة القصيرة التي قضاها في الحكم (من 1075 إلى سنة 1082) وانشغاله بمسألة إعادة بناء الوحدة الوطنية، بالقضاء على

---

[1] – حجي (محمد)، الزاوية الدلائية. ط1. الرباط 1964. صص.230-231.

[2] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصاء. ط. البيضاء 1956، ج7. ص.37.

[3] – مطلع قصيدة للعلامة اليوسي في رثاء زاوية الدلاء، انظر: حجي (محمد)، م.س، ص.101.

[4] – نرمز بكلمة إفش من السنين إلى عام 1081.

[5] – ابن ابراهيم (العباس)، م.س، ص247.

الإمارات المحلية التي كانت وراء تفتت وحدة البلاد، لم يسمحا له بوضع أسس متينة لعلائق الدولة في عهده مع أهل الصلاح بمدينة فاس.

وبالرغم من هذه الملاحظة الاستنتاجية، فإن بعض الإشارات التاريخية تفيد بأن السلطان مولاي رشيد، وبإشارة من أخيه مولاي الحران وابن أخيه مولاي أحمد بن محرز، قد فتح أثناء حصاره لمدينة فاس، قناة الاتصال السري مع الشيخ أحمد بن عبد الرحمان الفاسي، صاحب زاوية القلقليين، لتمهيد النفوس داخل أسوار فاس للاستجابة لدعوة العلويين.[1] ولعل دور الشيخ أحمد بن عبد الرحمان الفاسي هوالذي سهل مهمة دخول مولاي رشيد إلى فاس عام 1076هـ. وقد كافأه السلطان بأن، صرف إليه فتوحات سيدي احرازم بعد أن نزعها من يد القادريين. وعلى العموم فإن السلطان مولاي رشيد كان يكرم العلماء والصلحاء معظما لحرماتهم رافعا لأقدارهم،[2]فما هي طبيعة العلائق التي تربط سلاطين الدولة العلوية بأهل الصلاح بمدينة فاس، من عهد مولاي إسماعيل إلى غاية نهاية القرن 13هـ/19م ؟

2- علاقات سلاطين الدولة العلوية مع أهل الصلاح بفاس

أ- عهد السلطان مولاي إسماعيل

من الملاحظ أن انتساب العلويين إلى البيت النبوي جعلهم في مأمن من معارضة أهل الصلاح بمدينة فاس، ذلك أن عددا كبيرا من أهل الصلاح بمدينة فاس هم في غالب الأحيان من ذرية مولاي إدريس، باني مدينة فاس، أو من الأشراف الطارئين على فاس من صقلية أومن المشرق في بعض الأحيان.[3] وكان هؤلاء الأشراف يجمعون ما بين العلم والصلاح. ولا مشاحة إذا قلنا بأن العلم والصلاح بهذه المدينة من الأمور التي تفتح في وجه

---

[1]- حجي (محمد)، م.س، ص229.

[2] - الكنسوسي (محمد بن أحمد): الجيش العرمرم، ج1. ص117.

[3]- نذكر من هؤلاء على الخصوص الشرفاء الصقليين والشرفاء العراقيين، وهم من الحسنيين (الدرر البهية، ط1999، ج2، من ص204-243).

العلماء والصلحاء أبواب السلاطين والولاة وأهل المال بمدينة فاس.[1] وتبقى علائق سلاطين الدولة العلوية من عهد مولاي إسماعيل إلى عهد مولاي الحسن مبنية أساسا على الاحترام المتبادل بين الجانبين وهذا ما جعلنا نركز في هذا المحور على هذه الفترة الطويلة، حيث كان السلاطين يكتفون بمراقبة ما يجري بين أهل الصلاح بالمدينة من بعيد، ولا يتدخلون إلا بلطف لإعادة الأمور إلى سابق عهدها خاصة أن العاصمة كانت تنتقل في بعض الأحيان إلى مراكش.

كان السلطان مولاي إسماعيل، ثالث ثلاثة من المؤسسين الأوائل الذين تحملوا مسؤولية إعادة بناء الوحدة الوطنية، وفي اليوم السابع على وفاة السلطان مولاي رشيد بمراكش من عام 1081هـ/مايو 1670م، نزلت السلطنة بقضها وقضيضها بين الزياتين في ضيافة الهادي بن عيسى[2] في انتظار الأوامر لتركع في مياه أبي فكران. وما هي إلا برهة حتى جاء الإذن، فتداعى أهل الحل والعقد من علماء وصلحاء مدينتي فاس ومكناس،[3] وكل المناطق الشمالية، واتفق رأيهم على أن الشاب مولاي إسماعيل، خليفة أخيه على المناطق الشمالية، أحق بالسلطنة، وظللها برسوم البيعة ومراسم الطاعة والتبرك كل النجوم المشرقة إبانه في أجواء أسايس وسماء أزغار، وهؤلاء الأعلام، يعتبرون بحق أعمدة للوطن، خلد التاريخ ذكرهم، ومآثرهم رحمة بهذا الوطن وساكنيه من السقوط في أتون الفتن. وهكذا استراحت السلطنة بين زياتين مكناس راكعة متذللة عند أقدام فارسها الجديد، منتظرة ما ستسفر عنه الأيام القادمة.

---

[1] – انظر على الخصوص ما ورد عند الكتاني في سلوة الأنفاس. طبعة 2004. 3 أجزاء. ونشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري. 4 أجزاء.

[2] – انظر ترجمته في ممتع الاسماع ط1994، ص.80-81،

[3] – من الرجال الأعيان الذين شاركوا في بيعة مولاي إسماعيل نذكر على سبيل المثال: العلامة اليوسي، عبد القادر الفاسي وابنه محمد، وأحمد العبدلاوي (الاستقصاء، ج7. ص.45).

كانت السلطنة بعد نزولها بمكناسة الزيتون في حالة من الضعف والوهن بعدما ظلت تائهة لمدة سبعين سنة مترحلة من صياصي وشواهق الجبال إلى قيعان الأودية. فعول السلطان الجديد مولاي إسماعيل على تطبيبها وإشفاء أسقامها وتجديد ما اندرس من معالمها، فأقسم بالله حتى يعض على تلابيبها بالنواجد، ولا يولي أحدا من أمرها شيئا، إلا الذين يعينونها على حق من حقوق الله. ولا يعيرون أي اهتمام للوَّامين المشائين بالهمز واللمز من غارسي النميمة.

في الوقت الذي رحلت فيه السلطنة إلى مكناسة الزيتون كان أهل حمراء الجنوب منشغلين بمروق السفرجل، قانعين بالتفيؤ بظلال الباسقات بباب دكالة وباب أيلان وعراصي أكدال، وما انتبهوا إلا والسلطنة قد اجتازت أم الربيع وعبرت بشورتها ثنايا فازاز، وأغاظهم أن تغلس وتنفلت من ابن عجال بعدما رحلها قسرا إلى مراكش،[1]ولم يتردد الفهدي من استضافتها ببلاد الشجرة المباركة حيث هناك من يحمي بيضتها. وهكذا تقاعس المراكشيون عن الوفادة إلى مكناس، وما أرادوا ببقاء السلطنة بحمراء الجنوب بديلا، وقد عولوا على استرجاعها، فانتدبوا للأمر لها كهلا من بلاد سجلماسة، إنه أحمد بن محرز، خليفة عمه المتوفى بالجنوب، حيث كان يجول في خاطره أنه أحق بالسلطنة من ابن أخيه مولاي إسماعيل.

وبالرغم من زوابع الفتن التي بدأت تهب بقوة من الجنوب، فإن عين الشاب مولاي إسماعيل، كانت على ساكنة مدينة فاس الذين تحزبوا، وقتلوا القائد الاسماعيلي زيدان بن عبيد العامري، وذلك في شهر جمادى الأولى عام 1083هـ/غشت 1672م.[2]

انشغل مولاي إسماعيل بتحول عامة أهل فاس إلى صف أحمد بن محرز، فعول على محاصرة المدينة، وعاهد الله في سريرته، إن رد عليه ملكه بمدينة فاس ألا يضر أحدا، وتطوع

---

[1] – انظر خبر ترحيل السلطنة إلى مراكش مع ابن عجال الغزواني، في: دوحة الناشر لابن عسكر الشفشاوني. ط1976، ص.97.

[2] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصاء، ط1956، ج7، ص.47.

بضمان هذا النداء صالح من صلحاء المدينة وهو الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله معن الأندلسي الفاسي.[1] فقد كان هذا الشيخ يتمتع بوضع صوفي متميز بمدينة فاس، وكانت كلمته مسموعة بين عامة المدينة. إذ ما كاد أهل فاس يعلنون الثورة ضد السلطان مولاي إسماعيل ويظهرون نيتهم في الانضمام إلى أحمد بن محرز، حتى أعلن الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله لأهل فاس بأنه لابد «لكم من يد السلطان ترجعون إليه ولابد يدخل للمدينة صلحا».[2]

ويظهر من خلال بعض الإشارات التاريخية، أن مولاي إسماعيل انشغل كثيرا بثورة أهل فاس ضده، فحاول حصار المدينة لمدة سنة وشهرين، فكان في بعض الليالي يتضرع إلى الله سبحانه بأن يُعيد إليه مدينة فاس، وعاهد الله بأنه إذا تغلب على أهل المدينة، فإنه لن يضر أحدا من العامة بالمدينة، ولم يجد من أهل الله بالمدينة من يضمنه، فتقدم الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله في عالم الغيب وضمن السلطان في عهده لله. فلما انصاعت المدينة بالطاعة للسلطان، ذكر الشيخ السلطان بما كان يدور في خلده، وهدده إن دار أي إن تخلى عن تعهده بعدم الإضرار بأهل فاس فإن الشيخ سيتخلى عنه، خاصة أن بعض «أهل الرياسة بالمدينة كانوا يتمنون زوال يد الشيخ على السلطان ليفسد ملكه فيمن فسد.[3]

وبالرغم من أن بعض المصادر التاريخية تشير إلى أن عمال السلطان على فاس (عبد الرحمان المتراري وأحمد التلمساني) قد عاثا في المدينة بعد التغلب عليها بالضرب والسجن والنهب،[4]فإن السلطان مولاي إسماعيل قد ظل يداري رجال العلم وأهل الصلاح بالمدينة لمدة طويلة، فعين بعضهم في مناصب القضاء والحسبة، وآخرين في مناصب الافتاء وإمامة الناس

---

[1]- انظر ترجمة مطولة للشيخ: نشر المثاني. الرباط، 1986، ج3. ص182-192.

[2] - الضعيف الرباطي. البيضاء، ط2، 2007. ج1. ص.157.

[3] - انظر خبر الشيخ أحمد بن عبد الله معن مع السلطان مولاي إسماعيل عند: ابن ابراهيم (العباس) ، الإعلام. الرباط، 1975، ج3، ص65.

[4] - الكنسوسي ، الجيش العرمرم، مراكش، د.ت. ج1. ص120.

في بعض المساجد سواء بفاس الجديد أو بالمدينة القديمة.[1] وأظهر عناية خاصة ببعض زوايا المدينة (زاوية سيدي عبد القادر الفاسي) بالقلقليين[2]ومسجد الأندلس[3].

وكان السلطان مولاي إسماعيل يقدر آل الفاسي تقديرا خاصا، فكان هو وعماله بالمدينة لا يكسرون حرمة للزاوية ولا يعترضون على من استحرم بها حتى ولوكان من الخارجين عن طاعة السلطان.[4] وبالرغم من أن السلطان مولاي إسماعيل كان يحرص دائما بأن يبقى حبل الود ممدودا بينه وبين علماء وصلحاء مدينة فاس، فإن قضية تشكيل جيش عبيد البخاري، ودعوة السلطان أهل فاس بانخراط حراطين المدينة في هذه العملية سنة 1114هـ، قد أفسدت جو العلائق الإيجابية بين السلطان وأهل فاس حيث رفض فقهاء المدينة الاستجابة لرغبة السلطان،[5]فتفجر غضبه ووجه كتاب توبيخ لعلماء وفقهاء المدينة. فقرأت الرسالة عليهم بزاوية القلقليين، وقد انتهت الرسالة بمدح العامة وذم الفقهاء.[6] وقد انتهت هذه القضية بمقتل الفقيه عبد السلام بن حمدون جسوس «من أجل امتناعه من الموافقة على ديون الحراطين».[7]

وهكذا يمكن القول إن العلائق بين السلطان مولاي إسماعيل وعلماء وصلحاء مدينة فاس قد تحكمت فيها عوامل تتعلق بالتوجه السياسي العام للسلطان مولاي إسماعيل، وكان السلطان، ولأسباب سياسية أيضا، يتظاهر بالحفاظ على شعرة معاوية بين المخزن الاسماعيلي

---

[1] – حول بعض التعيينات في هذه المناصب، انظر: القادري ، النشرح. ج2. صص.16، 53-65.... والضعيف، ج1. ص169.

[2] – انظر ترجمة عند القادري في نشر المثاني، ج2، صص270-279.

[3]– الضعيف الرباطي، ج.1، ص163 وص166.

[4] – يشير ابن زيدان في كتابه "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف" ط1993، ص149 بأن علائق سلاطين الدولة العلوية مع آل الفاسي قد بدأت منذ عهد السلطان مولاي رشيد، واستمرت على ما هي عليه.

[5]– القادري، نشر المثاني، الرباط 1986، ج3. ص.145.

[6] – الضعيف الرباطي، ج1، ص2007، ص.187.

[7] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصاء. ط1956. ج7. ص94.

ورجال العلم والصلاح بالمدينة. فما هي التطورات االتي عرفتها هذه العلائق بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل سنة 1139هـ/1727م ؟.

ب . طبيعة العلائق بين علماء وصلحاء مدينة فاس بعد وفاة مولاي إسماعيل

1. سنوات الفترة[1]

انتقل السلطان مولاي إسماعيل إلى الرفيق الأعلى سنة 1139هـ/1727م، وهو لم يبث بشكل نهائي في مسألة من يتولى الحكم بعده،[2]الأمر الذي أتاح الفرصة لقادة جيش عبيد البخاري[3]للتدخل في شؤون الحكم حيث كانوا ينصبون من أبناء السلطان أمراء لا تتوفر تتوفر فيهم كل المواصفات اللازمة لممارسة السلطة. وقد ظل عبيد البخاري من سنة 1139هـ/1727م إلى غاية 1171هـ/1757م، ينصبون من شاؤوا من أبناء السلطان مولاي إسماعيل ويعزلون من شاؤوا. ومن المثير للانتباه أن علماء فاس وصلحاء هذه المدينة التي شاركت في أحداث هذه الفترة، بالثورة مرات على الأمراء السلاطين، أوعلى ولاتهم وعمالهم إما بالقتل أوالطرد من المدينة،[4]كانوا يكتفون بمداهنة السلاطين والحكام أوالتزام منازلهم ولسان حالهم يقول: «الله ينصر من صبح». ولم يكم لهم أي دور يذكر في توجيه الأحداث توجيها لصالح السلاطين أوضدهم. وظل الحال على ما هو عليه أكثر من ثلاثين سنة، فكان «الناس قد سئموا الهرج والفتن، وأعياهم التفاقم والاضطراب وملوا الحرب وملتهم».[5]

---

[1] – كان بعض المؤرخين يطلقون نعت "الفترة" على المدة التي سيطر فيها العبيد على دواليب الحكم. .

[2] – يذكر الناصري في الاستقصاء، ج7، ص.100، أن السلطان مولاي إسماعيل قد توفي وهو لم يوص لأحد من أبناءه بولاية العهد، بإشارة من الفقيه الحميدي.

[3] – يسمون بعبيد البخاري لأنهم أقسموا هم والسلطان على صحيح البخاري.

[4] – القادري (محمد بن الطيب)، نشر المثاني، ج.3، ص.291.

[5] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا، ج8، ص.7.

وخلال المدة الأخيرة من حكم السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل،[1]برز ابنه سيدي محمد بن عبد الله كخليفة لأبيه بمراكش، فقد وصفه الناصري في الاستقصا (ج.8:5) بـ«جذوة الرأي وتمام المعرفة بإدارة الأمور... وتضافرت على ولائه ونصره القلوب»، وهذا ما جعل أهل مراكش يعلنون بيعته بعد وفاة والده، ولم يتردد أهل فاس في عقد البيعة له من غير توقف ولا تريث على حد تعبير صاحب الاستقصا (ج.8:5). وقد شارك عدد من أهل العلم والصلاح بمدينة فاس في عقد البيعة للسلطان الجديد،[2]وهوما يعتبر مؤشرا جديدا على فتح باب جديد من العلائق بين العلويين وأهل فاس.

2- بعد سنوات الفترة

يظهر أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، قد أدرك منذ سنوات خلافته بمراكش، أن الداء العضال للدولة المغربية بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل لا يكمن في ولاء صلحاء وعلماء مدينة فاس، وإنما داؤها في عبيد البخاري، لذلك حاول غير ما مرة رتق خرق هذه الطائفة من جيش المخزن الاسماعيلي، خاصة في عهد والده السلطان مولاي عبد الله بن اسماعيل.[3] وقد حاول العبيد إغراءه بعقد البيعة له وهو خليفة لوالده بمراكش، إلا أن سيدي محمد بن عبد الله بدهائه السياسي وخبرته بنفسية العبيد، أفشل هذه المحاولة التي يمكن اعتبارها آخر محاولة لعصيان العبيد بعدما بدأت تلوح على سلوكهم مظاهر الوهن والإعياء. خاصة أن السلطان مولاي عبد الله قد تمكن من التخلص من أحد رؤوس عبيد البخاري الذي لا يتردد في إثارة الفتن بين المغاربة وهو سالم الدكالي.[4] وبعدما تمت بيعة السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1171هـ/1757م بمراكش، قرر البقاء طيلة مدة حكمه بحمراء

---

[1] - بويع للسلطان مولاي عبد اله بن إسماعيل بالملك عدة مرات، انظر: الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا، ط.1956. ج7، منن ص125 إلى ص183.

[2] - الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا، ج8، ص.7.

[3] - القادري ، نشر المثاني، ط1986م، ج4، ص.82.

[4] - لناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا، ط1956، ج7، ص142.

الجنوب، ولكنه لم ينس مدينة فاس، خاصة أن علماء المدينة هم أول من كتب عقد البيعة للسلطان سيدي محمد بن عبد الله كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ويفهم من بعض الإشارات التاريخية أن سيدي محمد بن عبد الله كان يعرف أن بعض علماء فاس كانوا يحذرون في مجالسهم العلمية الطلبة الذين يدرسون عليهم «من موالاة الولاة» ويقول لهم: «إنهم لا حاجة لهم بعالم أو صالح، وإنما قصدهم فيكم ما يتوقف عليكم من الإيصال إلى ما يريدون».[1]

وبالرغم من أن مثل هذا الكلام، صدر عن عالم كبير من علماء فاس زمن سيطرة عبيد البخاري، فإن سيدي محمد بن عبد الله كان يعي جيدا أن علاقة العبيد بأهل فاس قد أحدثت شرخا كبيرا في نفسيتهم ، لذلك حاول بكل ما أوتي من دهاء تصفية الأجواء بين المخزن العلوي وأهل فاس، وهكذا ما كاد وفد فاس يأتي لمكناس لاستقبال سيدي محمد ابن عبد الله القادم من مراكش إلى فاس «فخرج من فاس جم غفير... من الشرفاء والعلماء والرماة... فكان لقياهم معه بمكناسة فأسدى عليهم من الخير والإحسان ما لا يحيط به لسان».[2] وبعد ثلاثة أيام أذن لهم بالرجوع إلى فاس، ثم ورد بعد ذلك على المدينة وكان «يوم دخوله يوم عظيم ومشهد كريم».[3] ثم زار ضريح مولاي ادريس وزاوية القلقليين حيث ترحم على روح سيدي عبد القادر الفاسي «ووصل الشرفاء ألف من الريال والعلماء وسائر الطلبة بألف من الريال وواسى الضعفاء والمساكين والفقراء، وأهل العاهات بمال أيضا».[4]

ويتضح من هذه الإشارات التاريخية أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله عرف كيف يحافظ على شعرة معاوية بينه وبين أهل الصلاح والعلم بالمدينة العلمية، ولعل ما يؤكد

---

[1] – القادري (محمد بن الطيب) ، نشر المثانين ط1986، ج4، ص86.
[2] – نفسه، ص124
[3] – نفسه، ن.م، ص124-125
[4] – نفسه، ن.م، ص131

التجاوب الإيجابي بين أهل العلم والصلاح بالمدينة، أن السلطان لم يغادر المدينة إلا بعدما تمكن من الحصول على الفتوى التي تسمح له بفرض المكوس بأسواق فاس وأسواق باقي جهات المغرب «فكتبوا له تأليفا يسمح لسيدي محمد بن عبد الله بتوظيف المكوس على الأبواب والغلات والسلع».[1]

وبعدما تأكد للسلطان سيدي محمد بن عبد الله أن عامة الشعب بالمدن والقرى وراءه، وتأكدت بشكل قاطع توجهاته السياسية خاصة أن علماء وصلحاء مدينة فاس قد لهجوا بأيام دولته، ركز جهوده لإعادة الأمن والاستقرار، بالقضاء على تمرد القبائل وردع الخارجين في كل جهات المغرب عن طاعته. وقد توفي سيدي محمد بن عبد الله بالرباط في شهر رجب 1204هـ/مارس 1790م، دون أن يعين من أبنائه من يتولى الملك بعده، وهذا ما جعل مولاي اليزيد ينقض على السلطنة وينصب نفسه ملكا على المغاربة. إلا أن الطبع العنيف لمولاي اليزيد جعل المغاربة عامة، وأهل فاس خاصة لا يتفقون على بيعته.

كان مولاي اليزيد كغيره من سلاطين الدولة العلوية يدرك ما تمثله مدينة فاس من ثقل سياسي لوجود ثلة من أبرز صلحاء وعلماء المغرب بالمدينة، فحاول التقرب من هذه الفئة النافذة في المجتمع المغربي بإلغاء المكوس على أبواب الأسواق وعلى السلع في مجموع أنحاء المغرب.[2] وبالرغم من هذا القرار، الذي حاول مولاي اليزيد من خلاله التقرب إلى فئة العلماء والصلحاء بمدينة فاس، إلا أن قراره بتسريح الأوداية من مكناس والسماح لهم بالعودة إلى فاس، التي استراحت من فسادهم.. مدة ثلاثين سنة[3] أفسد علائقه بأهل فاس. وفي

---

[1] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. البيضاء، 1956، ج8، ص7.

[2] – الرباطي (الضعيف) تاريخ الضعيف، ط2، 2007. ج1، ص380.

[3] – أكنسوس (محمد بن أحمد)، الجيش العرمرم. ط. مراكش. د.ت. ج1، ص267.

محاولة لإخضاع انتفاضة أهل الحوز بمراكش، الذين بايعوا أخاه مولاي هشام، تعرض مولاي اليزيد لجرح كان فيه حتفه، فتوفي في أواخر جمادى الثانية سنة 1206هـ/يناير 1792م.[1]

وهكذا ما كاد خبر وفاة مولاي اليزيد يصل إلى مدينة فاس ومكناس حتى قام سكان المدينتين، والهيئات المخزنية من عبيد وأعيان الودايا وأهل فاس بالاجتماع بضريح مولاي ادريس وأعلنوا بيعة مولاي سليمان سلطانا على المغاربة، وكان مولاي سليمان يوجد إبانه بفاس، فانتقل إلى فاس الجديد فاستقر بدار الملك، فقدمت عليه وفود القبائل من مختلف الجهات الشمالية للبلاد.[2]

وبالرغم من أن مولاي سليمان قد وافق بشروط على قبوله للبيعة بالملك،[3] فإنه حرص على أن تكون علائقه بعلماء وأهل الصلاح بفاس علائق طيبة ومتينة.[4] ولعل هذه العلائق بأهل العلم والصلاح بمدينة فاس هي التي جعلت علماء المدينة يتصدون للرد على الطعن في بيعة مولاي سليمان، الذي كان وراءه، شيخ زاوية وزان في وقته سيدي علي بن أحمد الوزاني،[5] ذلك أن هذا الشيخ كان يميل لمولاي سلامة، الأخ الشقيق لمولاي يزيد، وقد ظل مولاي سلامة ينافس أخاه مولاي سليمان على كرسي الحكم، حيث بايعته عدة جهات بالمناطق الشمالية.[6]

وإذا كان سيدي علي بن أحمد قد اعترض على بيعة مولاي سليمان اعتمادا على رأي شرعي[7] فإن وقوف علماء وصلحاء مدينة فاس إلى جانب السلطان مولاي

---

[1] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا، ط1956، ج8، صص82-83.

[2] – نفسه، ن.م، ص87-88

[3] – الرباطي (الضعيف)، م.س، ج2، ص493.

[4] – كان السلطان مولاي سليمان قد تعلم على يد عدد كبير من علماء القرويين، فكانوا يعرفونه جيدا، ويعرفهم، وقد سهلت عليه هذه المعرفة السابقة التعامل إيجابيا مع فئة العلماء والصلحاء بالمدينة العلمية.

[5] – انظر ترجمته عند القادري في نشر المثاني، ط1986، ج4، صص267-268.

[6] – الرباطي (محمد بن عبد السلام)، تاريخ الضعيف، ط2007، ج1، صص427.428.

[7] – حول هذه المسألة، انظر الأسئلة الموجهة للعلماء والرد عليها عند :
. الرباطي (محمد بن عبد السلام)، تاريخ الضعيف، ط2007، ج2، صص449.451.

سليمان،كان له تأثير على الرأي العام الذي ناصر هذا الأخير بشكل نهائي ببيعة جل مناطق المغرب ابتداء من سنة 1212هـ/1797م.[1]

ولعل من سعد مولاي سليمان أن وباء الطاعون نزل بالمغرب في نفس السنة، فذهب هذا الطاعون بعدد من المعارضين المنافسين للسلطان، خاصة «مشايب البلاء وشياطين القبائل، فتمهدت المملكة لمولاي سليمان، فلم يبق معارض ولا منازع».[2]

سبق لنا أن أشرنا إلى أن مولاي سليمان وضع شروطا أمام علماء فاس لقبول البيعة، ومن جملة هذه الشروط التي أعلن عنها مولاي سليمان، أن يعينه علماء مدينة فاس على حل بعض المشاكل. وكان السلطان يعطف بشكل خاص على سكان مدينة فاس عامة وعلى علماء المدينة خاصة. فقد حدث أن السلطان مولاي سليمان طلب من بعض علماء فاس أن يتوسطوا له في بعض القضايا فتقاعسوا، فوجه إليهم السلطان رسالة يوبخهم على تقاعسهم. ومما جاء في هذه الرسالة «وحتى الآن لا فائدة لكم لأني اختبرتكم فوجدت همتكم في بطونكم».[3]إلا أن هذا التوبيخ لم يفسد للود قضية بين السلطان مولاي سليمان وعلماء مدينة فاس، ذلك أن السلطان كان يُفيض من عطاءاته لبعض العلماء والأشراف بالمدينة.[4]

من الصعب علينا في هذه العجالة، رصد كل المواقف التي تكشف جوانب مهمة من طبيعة العلائق بين مولاي سليمان وعلماء وصلحاء فاس، لأن جل الذين دونوا أخبار السلطان مولاي سليمان قد أغفلوا هذا الجانب عن قصد أوعن غير قصد، ولأن السلطان بعد سنة 1212هـ/1797م قد انشغل بإعادة بناء الوحدة الوطنية لتوفير ظروف الأمن

---

[1] – نفسه، ن.م، ص449.

[2] – أكنسوس (محمد بن أحمد)، الجيش العرمرم. ط مراكش، د.ت. ج1، ص281.

[3] – الرباطي (محمد بن عبد السلام)، تاريخ الضعيف، ط2007، ج2، ص524.

[4] – يشير صاحب تاريخ العضيف الرباطي في عدة إشارات تاريخية إلى الأعمال الخيرية التي كان مولاي سليمان يقوم بها بمدينة فاس لصالح العلماء وطلبة العلم والشرفاء. ينظر ج2، من الضعيف من ص478 فما بعد.

والاستقرار لسكان البلاد بالضرب على أيدي مثيري الفتن سواء من القبائل أو بالحد من تشغيب بعض الأشراف من البيت العلوي، على السلطان مولاي سليمان، خاصة أن أجيالا من المغاربة قد طفح بهم الكيل في إثارة الشغب والفتن على السلطان مولاي سليمان.[1] ويزعم عدد من المؤرخين أن الفتن انطلقت منذ سنة 1226هـ/1811م، وشاركت فيها القبائل الأمازيغية بالأطلس المتوسط.[2] وقد عرفت هذه الفتن أوجها مع هزيمة الجيش السليماني أمام قبائل ظيان بأدخسان بالقرب من خنيفرة الحالية.[3] وقد امتدت مظاهر التشغيب والفتن إلى حاضرة فاس حيث ظهر نزاع خطير بين أهل فاس حول عاملهم الحاج محمد الصفار، وقد حاول السلطان معالجة مسألة الصفار بفاس دون جدوى، فقرر الرحيل إلى مراكش، إلا أن جيش البخاري تثاقل عن السفر مع السلطان فأعرض عنه، إذ ما كاد السلطان يصل إلى مراكش حتى وصل إلى سمعه ما آلت إليه أحوال مدينة فاس من فتن وتشغيب وذلك في شهر رمضان عام 1235هـ/ 1820م. فقد تفاقم أمر الفتنة بفاس في نفس الفترة بسبب النزاع الكبير الذي ظهر بين القاضي العباس بن سودة، والمفتي محمد بن ابراهيم الدكالي.[4] وقد ملَّ السلطان هذه الفتن بالحاضرة العلمية، فحاول إعادة الأمور إلى نصابها بتوجيه عدة رسائل وعظية إلى سكان فاس، إلا أن هذه الرسائل جعلت سكان المدينة يعرضون كلية عن نصائح السلطان ويقررون الخروج عنه، فأعلنوا بيعة مولاي إبراهيم بن يزيد.[5] ومن الذين شاركوا في هذه البيعة الشيخ الصوفي محمد العربي الدرقاوي.[6] وقد اعتقله بعض أتباعه وأودعوه بالسجن. أما سلطان فاس مولاي ابراهيم بن يزيد فقد انتقل نحو مدينة تطوان حيث توفي هناك. أما السلطان مولاي سليمان فقد سافر من مراكش إلى فاس فواجهه ثوار فاس

---

[1] – الناصري (الاستقصاء)، ط1956، ج8، ابتداء من ص115 فما بعد.

[2] – نفسه، ن.م، ص134-135

[3] – انظر أسباب هذه الهزيمة في الاستقصا، ج8، صص135.137.

[4] – الناصري (أحمد بن خالد)، ن.م، صص146-147.

[5] – نفسه، ن.م، ص.

[6] – ظل الشيخ الدرقاوي في السجن إلى أن سرحه السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام.

بالبارود والقنابل فقرر السلطان ضرب حصار قوي على المدينة. فلما أعياه أمر المدينة قرر التنازل عن الملك لابن أخيه مولاي عبد الرحمان بن هشام وذلك سنة 1238هـ/نونبر 1822م.[1]

كان السلطان مولاي سليمان، قد وصى بولاية العهد إلى ابن أخيه مولاي عبد الرحمان بن هشام كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فلما بلغ مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى مدينة فاس يوم 26 من ربيع الأول سنة 1238هـ/نونبر 1822م بلغه نعي السلطان مولاي سليمان بمراكش، فأسرع الشرفاء والعلماء وأعيان مدينة فاس فعقدوا البيعة لمولاي عبد الرحمان بن هشام، ولم يتخلف عن بيعته أحد من أهل المغرب بعدما بايعه سكان هذه المدينة التي تعتبر بحق أم أمصار المغرب.[2] فكيف تميزت علاقات مولاي عبد الرحمان بن هشام بأهل العلم والصلاح بمدينة فاس.

أشرنا سابقا إلى اعتقال الشيخ محمد العربي الدرقاوي بمدينة فاس في أخريات أيام السلطان مولاي سليمان، فلما تمت بيعة مولاي عبد الرحمان بن هشام، سرح الشيخ الدرقاوي من السجن، وكانت هذه المبادرة الطيبة من السلطان، فاتحة خير في علائق السطان مولاي عبد الرحمان بن هشام مع أهل العلم والصلاح بالمدينة العلمية. ففي سنة 1246هـ/1830م احتل الفرنسون الجزائر وبدأوا يهددون الحدود الشرقية للبلاد، وقد انشغل السلطان لهذا الحادث. وفي مطلع سنة 1247هـ/يونيو1831م، ثار جيش الودايا بفاس،[3] فرحل السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى مراكش. وما كاد يستقر بمراكش بشكل مؤقت حتى عالج مشكل ثورة جيش الودايا بتشتيتهم بعدة مناطق من البلاد.[4] كما قتل جماعة من مثيري الفتن والتشغيب من الوداية.[5] وبمناسبة عرس ابنه الأمير سيدي محمد بن عبد الرحمان،

---

[1] – انظر وصية السلطان مولاي سليمان لتنصيب ابن أخيه مولاي عبد الرحمان في الضعيف، ج2، ص751.

[2] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا، ط1956، ج9، ص3.

[3] – نفسه، ن.م، من ص32 إلى ص37.

[4] – أكنسوس (محمد بن أحمد)، الجيش العرمرم، ط مراكش، ج2، ص27.

[5] – الناصري (أحمد بن خالد)، م.س، ط1956، ج9، ص41.40.

أمر السلطان أهل فاس أن «يوجهوا إلى مراكش العلماء والأشراف والأعيان والتجار وأكابر كل حرفة».[1] فهل حاول السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إرضاء أهل فاس بهذه المبادرة ؟

في الوقت الذي تمكن فيه السلطان مولاي عبد الرحمان من التخلص من ثوار الودايا بفاس وإرضاء علماء المدينة، فوجئ بثورة الأمير عبد القادر بن محيي الدين يعلن الحرب ضد فرنسا بشرق الجزائر،[2]فامتدت آثارها إلى المغرب، فوجد السلطان نفسه متورطا في مواجهة قوات الأمير عبد القادر الجزائري.[3] وقد تطورت المشاكل الحدودية بين السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام والفرنسيين المحتلين للجزائر إلى مواجهة القوات المغربية والقوات الفرنسية بإسلي انتهت بهزيمة المغاربة، وكانت هذه الهزيمة «مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها»، وكانت هذه الهزيمة في منتصف شعبان سنة ستين ومائتين وألف (1260هـ/غشت 1844م).[4]

ومن العواقب المباشرة لهذه الهزيمة انتفاض قبائل المغرب الشرقي ضد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام، ولم تتردد بعض القبائل الأخرى في إثارة القلاقل والفتن في وجهه.[5] وقد توفي السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام في أواخر محرم الحرام عام 1276 هجرية موافق يوليوز 1859 ميلادية، وتمت البيعة لابنه سيدي محمد بن عبد الرحمان. وقد أجمع أهل العلم والصلاح بمدينتي فاس ومكناس على بيعته، ولم يتخلف عن هذه البيعة أهل مراكش، وكل القبائل بالجهات الجنوبية. فما هي طبيعة علائق سيدي محمد بن عبد الرحمان مع أهل فاس عامة، والعلماء وأهل الصلاح بالمدينة خاصة ؟

---

[1] – أكنسوس (محمد بن أحمد)، م.س، ج2، ص24.
[2] – انظر أخبار الأمير عبد القادر عند الناصري في الاستقصا، ج9، صص46.41.
[3] – أكنسوس (محمد بن أحمد)، م.س، ج2، ص25.
[4] – الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا، ج9، ص53.
[5] – نفسه، ن.م، ص60. وأ:نسوس، ج2، ص43.

يظهر من جل الإشارات التاريخية أن سيدي محمد بن عبد الرحمان سار على نهج والده في التعامل مع أهل فاس، بتقدير أهل العلم والصلاح، والاكتفاء بتقديم الهدايا السنية لمن يستحقها منهم خاصة الأشراف والعلماء وأهل الصلاح. ولم نتمكن من تحديد أية إشارة عن خروج أهل فاس عن طاعة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان طيلة حكمه من سنة 1276هـ/1859م إلى غاية سنة 1290هـ/1873م؛ ذلك أن السلطان ظل منشغلا بالتهديدات الأوربية للبلاد، خاصة بعد هزيمة المغاربة في حرب تطوان في بداية عهد هذا السلطان.[1] فلما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، اجتمعت كلمة المغاربة على ابنه وخليفته بمراكش مولاي الحسن بن محمد،[2] ولما وصل خبر وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى فاس، اجتمع أهل الحل والعقد من الأشراف والعلماء والصلحاء للانضمام إلى عامة المغاربة في بيعة السلطان مولاي الحسن، إلا أن العامة بالمدينة اشترطوا أن يزال عنهم المكس.[3] ويذكر الناصري أن بعض أعيان المدينة، في إطار الحفاظ على جمع كلمة الأمة، قد ضمن لعامة الناس بالمدينة، خاصة فئة الدباغين، إزالة المكس، فلما حاول محمد بن المدني بنيس القيام بمهامه العادية في جمع الأمكاس من أبواب مدينة فاس، انقض عليه الدباغون وحاولوا قتله، فاختفى ببعض الأماكن حتى سكنت الهيعة على حد تعبير الناصري في الاستقصا (ج.9: 129). كان السلطان مولاي الحسن بن محمد ببلاد تامسنا إبان فتنة الدباغين بفاس، فتأنى في التوجه إلى المدينة بحيث لم يصل إليها إلا في شهر ربيع الأول سنة 1291هـ/أبريل 1874، فتوجه رأسا إلى الضريح الإدريسي في إشارة رمزية إلى ما يفكر فيه من اهتمام بأشراف وصلحاء المدينة العلمية. ويفهم من عدة إشارات تاريخية أن السلطان مولاي الحسن حاول معالجة قضية الدباغين بفاس، بعدم الاستسلام إلى مطالبهم، فثاروا وحملوا السلاح في وجه القوات المخزنية، ووصل بهم الأمر إلى الصعود إلى منارات المساجد، فأمر

---

[1] – انظر حول هذه الحرب: أكنسوس (محمد بن أحمد)، الجيش العرمرم، ج2، من ص83 إلى 86.

[2] – الناصري (أحمد بن خالد)، م.س. ص128.

[3] – نفسه، ن.م. ص129.

السلطان «بمقابلتهم على قدر جريمتهم، فطافت بهم العساكر ورموهم بالكور».[1]وقد تمكن السلطان بعد جهد جهيد من إنهاء هذه الفتنة ثم رحَّل رؤوس الفتنة إلى مراكش وعين الجيلالي بن حمو البخاري عاملا على المدينة، فاستقامت الأحوال. وبعدما عالج السلطان مولاي الحسن مشاكل قبائل الأطلس المتوسط، وقبائل المغرب الشرقي عاد إلى مدينة فاس، فعالج بعض المشاكل، وقد ظل السلطان مولاي الحسن مدة حكمه التي استمرت من سنة 1290هـ/1873م إلى غاية سنة 1311هـ/1894م، ينتقل باستمرار بين مختلف الحواضر والبوادي المغربية، ويعالج ما قد يطرأ من مشاكل إلى أن وافته المنية بوادي العبيد من أرض تادلة وذلك يوم ثالث ذي الحجة من عام 1311هـ/موافق 7 يونيه 1894م.

وهكذا يمكن أن نستخلص مما سبق أن علائق سلاطين الدولة العلوية بالصلحاء والعلماء من أهل فاس منذ عهد السلطان مولاي إسماعيل إلى غاية عهد مولاي الحسن كانت على العموم علائق إيجابية رغم ما كان يشوبها في بعض الأحيان من توترات نظرا لمواقف بعض أهل الصلاح وأهل العلم بفاس، أولمواقف معينة من عامة الناس، فكان السلاطين يعالجون هذه التوترات بما تقتضيه الظروف من حزم ودهاء.

[1] – ابن ابراهيم (عباس)، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. تحقيق عبد الوهاب بمنصور. المطبعة الملكية. الرباط.. 1975. ج3. ص176.